عمر طاهر

عند ضيوف

حكايات صديقة للبيئة!..

أعمال عمر طاهر

الصادرة عن دار الكرمة

عَنده ضيوف: حكايات صديقة للبيئة

صنايعية مصر: الكتاب الثاني

بعد ما يناموا العيال (قصص)

من علَّم عبد الناصر شُرب السجائر؟

كحل وحبهان (رواية)

كتاب المواصلات: حكايات شخصية لقتل الوقت

صنايعية مصر: مشاهد من حياة بعض بناة مصر في العصر الحديث

إذاعة الأغاني: سيرة شخصية للغناء

أثر النبي: قصص قصيرة من وحي السيرة

ألبومات عمر طاهر الساخرة (طبعة جديدة منقحة ومجمعة من «شكلها باظت» و«كابتن مصر» و«زملكاوي»

و«ابن عبد الحميد الترزي» و«رصف مصر») نظرية برما (طبعة جديدة منقحة ومجمعة من «برما يقابل ريا وسكينة» و«الكلاب لا تأكل الشيكولاتة») جر ناعم

الكرمة

عمر طاهر

عنده ضيوف

حكايات صديقة للبيئة..!

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٣
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٣
© عمر طاهر ٢٠٢٣
الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة
تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

عَنده ضيوف: حكايات صديقة للبيئة / عمر طاهر - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٣.

تدمك: 9789778648010
١- القصص العربية.
أ - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٧٩٥٠ / ٢٠٢٢

تصميم الغلاف: وليد طاهر

المحتويات

الكاتب
أنانية ناعمة
ليلة باكستاني
التصفيق لحارس المرمى
الفيروزة
قصة حب فتاة أحلامي
بصيرة عمَّار
الحب اللي كان
بالقرب من باولو كويلو
منصور
عيش بلدي
ياما قابلتك في خيالي
واقعية مارادونا السحرية
تلقيح الجيل
الأيام التي لا يحدث فيها شيء

إهداء

إلى عاليا ورقية وليلى... أصحاب البيت.

اسمي عمر، كنت صغيرًا «ميرو».

أربعيني، أحب الأفلام الهندية القديمة لأن المعجزات فيها هي القاعدة وليست الاستثناء تمامًا مثل حياتي، وأقدس الحياة الزوجية إذ إنني لم أستدل على وجود حياة في أي مكان آخر.

أحب المشي والتصوير وسماع الأغاني، لديَّ الكثير من المشاريع المؤجلة، لكنني أحلم أن أمتلك ثروة تجعل هدفي الوحيد في الحياة أن أنفقها، تنازلت بالوقت عن الكثير من الأحلام ما عدا حلم السفر إلى بلاد بعينها، وحلم عمل برنامج اسمه «قلبي مساكن شعبية» يكون حجتي لقضاء يوم في بيوت مصرية بسيطة دافئة لا يوجد مبرر واحد لدخولها سوى البرنامج أو الالتحاق بالعمل في الأمن الوطني.

أحب اللحظات التي أكتشف فيها كم كنت محظوظًا عندما توقفت عن استخدام عقلي وتركت التاريخ يأخذ مجراه، أرى في «ساعة القدر يعمى البصر» خاصية في روعة الـ«airbag» تحمي الواحد من مخاطر الحوادث المترتبة على الحناكة، لا أذهب إلى الجيم لكنني أتدرب على الرضا كل يوم. قالت لي بائعة النعناع يوم اشتريت منها بمبلغ أسعدها: «روح ربنا يرمي في حجرك»، اكتشفت أن هذه الدعوة ملخص قصة حياتي، يلقي الله في حجري هدايا منذ وعيت، هناك هدايا سهلة وأخرى استلامها مرهون بخطة وإجراءات، هناك واحدة يتطلب استلامها قدرًا من المغامرة، وأخرى مرهونة بتقديم تضحية ما.

من أنصار نظرية «نعم صومعة المرء بيته»، أدقق فيما يستدعي الخروج منها للكوكب، لا يوجد بالخارج ما يمكنه أن يضاهي جاذبية الوقت الذي أجلس فيه مع طفلتَي أراقب فيهما الطريقة التي تنضج بها الأحلام، أو الوقت الذي أجلس فيه مع أبي وأمي أتأمل فيهما الطريق الذي قطعناه معًا حتى هذه اللحظة.

أعاني من عدة مشاكل.

الأولى حواراتي التي لا تنقطع مع النفس.

أضبطني كثيرًا ضيفًا منفردًا في برنامج بدون مذيع، فقط أنا، مرتديًا ما يجعلني أشعر بالراحة وعدم التكلف، يبدأ المشهد دائمًا من اللحظة التي تتدفق فيها الإجابات عن أسئلة لم يوجهها أحد.

متى بدأت هذه الأعراض؟ لا أعرف.

أجيب عن أسئلة بخصوص أشياء فعلتها وأخرى لم أفعلها، عن الطريقة التي أنهيت بها قصة أو مقالًا، عن الغيرة، عن مقارنات لا بد من عقدها مع أسماء أخرى، إنجازاتي الشخصية من صيانة السيارة إلى بر الوالدين، عن كافة أنواع الاختيارات التي انحزت إليها طول الطريق، عن الشعور بالذنب، أشخاص قد أكون تسببت لهم في أذى خلال الرحلة، عن قصص عاطفية أفشلتها أو استسلمت لغياب الرغبة في أن تنجح، متى كنت محظوظًا، عن لحظة عجز فيها لساني عن الرد، عن حق ضاع أو مكسب ما لم يكن من حقي، عن تقديري للخطأ الذي وقعت فيه أو النعمة التي بين يديَّ أو اسم الكتاب الأخير وغلافه وترتيب فصوله.

أتدرب على أن تكون الصراحة في مكانها، وأن أخبئ السخرية جيدًا حتى لا أجرح أحدًا، وأن أحدد كلماتي بما يحميها من عبث التأويل، ألا أتردد وأنا أذكر أصحاب الفضل، وأن أكون رحيمًا وأنا أعلق المشانق لمن لا أحبهم، وأن أحافظ على ابتسامتي طول الوقت.

أهرب من شكي في قواي العقلية لمحاولة النظر لما يحدث كصيغة أفضل قليلًا من فكرة محاكمة الذات، يهذب الواحد صيغة أفضل قليلًا من فكرة محاكمة النفس التي تطارد الواحد كثيرًا، يهذب الواحد الوضع قليلًا بأن يحول نفسه وهو يحاسبها من متهم يقف خلف القضبان إلى شخصية عامة يهتم آخرون بسماع وجهة نظره، صيغة بلا تأنيب ضمير أو ندم، بالعكس تمتلئ بجاذبية الاعتراف بالخطأ والاعتذار والتصالح مع كل ما جرى.

المشكلة الثانية تتجدد كلما ظهرت أمامي مقالات وفيديوهات وكتب بعنوان رشيق وجذاب يقول «كيف تستعيد شبابك؟». أعمال مبذول فيها مجهود صادق تقدم نصائح بخصوص الغذاء وممارسة الرياضة وتنظيم الوقت وتمارين التركيز والصفاء الذهني والنوم العميق، وكل ما يمنح شخصًا انتصفت أربعينياته أو أكبر، لياقة وصحة وعزيمة منتصف العشرينيات.

أفتش طول الوقت عن أعمال مماثلة لا تساعدني في استعادة شبابي ليقين ما ـ ربما لا أمارة حقيقية له ـ أنني لم أفقده بعد، ولكنْ أعمال تقول لي كيف تستعيد طفولتك؟

ما نوع الطعام الذي يجعل خلايا المخ تستعيد البراءة والعفوية والدهشة؟ تستعيد نظرة قديمة غذاؤها الفطرة؟ تستعيد الأسئلة التي كانت تحلق

بالواحد بعيدًا وتساعده بنعومة على اكتشاف العالم، بعمق وبدون تشويش؟ كانت جدتي تذكرني دومًا بأسئلتي (يا تيتة هو ربنا بيشتغل إيه؟ هو الأعمى بيشوف إيه في الحلم؟ أنا عارف مكان المخ والقلب والمعدة لكن الضمير مكانه فين في جسم الإنسان؟).

أفتش عن أعمال تعيد ضبط المصنع، تخلص الواحد من كل ما تراكم بعقله وروحه ووجدانه من حوادث. أريد أن أبدأ من جديد، أن أختبر الأشياء كلها بشغف المرة الأولى، بما فيها الألم. ركبت طائرات حلقت بي فوق مدن كبيرة لكن لم تتكرر زلزلة الجلوس إلى جوار شباك القطار أول مرة. تذوقت من الطعام ما حلمت وما لم أحلم به وتظل طاسة البيض المقلي بالسمن من يد أمي هي منتهى أملي عندما يحل الجوع. رنة جرس الباب كانت تحرك مشاعري وتقودني احتمالات أن يكون الطارق ضيفًا إلى نشوة غريبة قوامها بهجة ما ستحل على المنزل تمتلئ بالمشروبات والمأكولات والضحك والضجيج وودي المطبخ وهات من المطبخ وافرد سجادة الصلاة لطنط. اليوم يهرب الواحد من التجمعات بحجج أفكر في أن أجمعها في كتاب.

هل هناك تمارين بعينها تجعل الواحد يستعيد النداء القديم: «يا ابني اقعد على حيلك»، تمارين تخلص الواحد من نصيحة يومية متكررة من محبيك: «انزل غير جو، فك عن نفسك شوية»، تمارين تجعل الملل كلمة أعجمية لا أصل لها في قاموس حياتي مثلما كنت طفلًا يشكو ضيق الوقت الذي لا يكفيه لتأمل وقراءة كل ما يحيط به (دليل التلفونات، بطاقة التموين، إرشادات علب أدوية الأب، ظهر علب الشامبو ومساحيق الغسيل، بيانات فاتورة الكهرباء، مجلات الأم البوردا وحواء ودليل الأسرة السعيدة للحلويات).

هل هناك فيديوهات أو وصفات أو إرشادات أو حتى أعمال سفلية تساعد الطفل الذي كان يعيش في شقة في الطابق الخامس في أحد شوارع سوهاج الهادئة على أن يقطع تذكرة سفر ليقضي معي يومًا في مدينة الشيخ زايد، سأكون في خدمته (مش هافتح بُقي)، سأستمع إليه فقط، وإن كان ثمة كلام يجب عليَّ أن أقوله ربما سأنصحه بأن يبذل أقصى مجهود يقدر عليه ليتفادى الزمن، أن يعمل «كل اللي يقدر عليه» ليظل طفلًا.

في حياتي بعض الثوابت التي أحافظ عليها، أهمها دواء ضغط الدم المرتفع «إكسفورج ٥ على ١٢»، مهاتفة أمي كل مساء، وعدم الذهاب إلى النوم قبل أن أعثر على أسباب قوية ومقنعة تجعل استيقاظي في اليوم التالي أمرًا له

معنى، أضع على سبيل الاحتياط أهدافًا جانبية، مثل ترتيب المكتبة، شراء البن، الاتصال بأولاد عمي، كتابة ١٥٠ كلمة جديدة في ملف اسمه «عنده ضيوف».

الكاتب شخص «عنده ضيوف» في مخه طول الوقت، كائن هش، رزقه في هشاشته. تقول شاعرة أمريكية: «حتى لو سقطت ورقة شجر لظننت أن في الأمر قصيدة». يخطف جورج وسوف ثانية صمت بين جملتَي موسيقى ليقول «روحي يا نسمة عند الحبايب»، فأتعثر في سجاد الغرفة بحثًا عن الورق والأقلام. تطلق أمي صيحة نداء لشقيقتي الصغرى: «الشاي يا لولا»، فتتحرك مشاعر محملة بأفكار تكتب العائلة. استنتجت حتى اليوم أكثر من ٧١ طريقة تفكير خاضها مبلط السيراميك في حمَّام الشقة وهو يرص البلاطات المزخرفة، في كل مرة كنت أرى طريقة تفكيره مبنية على واقعة متخيلة مر بها يوم بدأ التبليط، في بيته مع زوجته مع أطفاله مع ديلر المخدرات مع سائق الميكروباص مع صاحب الشقة.

لا أعرف لنفسي مميزات سوى واحدة، وهي أنني أجيد الحديث عن عيوبي، أستطيع أن أفصصها لك بالساعات، الكاتب عبارة عن حس نقدي يسير على قدمين وطباخ السم بيدوقه. بعيدًا عن نظرتي لنفسي أعرف رأي الآخرين فيَّ: لا تحب أمي أحيانًا أني آخد الأمور على أعصابي، يطلب أبي مني كثيرًا أن «خليها على الله أكتر من كده»، وبعض الأصدقاء لا يحبون فيَّ أنه من الصعب إرضائي عندما يتعلق الأمر بإننا «هنطلب أكل أو هناكل بره»، بناتي لا يحببن أنني أدخن، زوجتي لا تحب ناقد الطعام الذي يظهر لها كل يوم على مائدة الغداء، زملاء العمل لا يحبون النمكية والوقوف عند أصغر تفصيلة والبحث عن الكمال بطريقة مزعجة. أجيد التعامل مع الملل، لكنني أفشل في التعامل مع الشعور بالإرهاق، أسوأ ما فيه أنك لا تعرف من أين ظهر حتى تعالجه، النفس منتظم، النبض طبيعي، القياسات الحيوية نموذجية، لا ماضي ينغص عليك وقتك، لا شيء مستقبليًّا يمكن أن يرهقك الخوف منه، التزاماتك صحيح أنك لم تنتهِ منها كلها لكن لا ضرر حقيقيًّا يترتب على المتأخر منها، الأحباب جميعهم بخير، لم تتأخر عن إحدى وجبات اليوم، الشهية بخير، تبذل جهدًا مقبولًا ليكون النصيب الأكبر في طعامك لكل ما هو صحي غير مؤذٍ، لا تمارس الرياضة صحيح، لكنك لم تكن رياضيًّا من قبل ولم يؤثر ذلك بشكل كبير عليك، تشرب الكثير من الماء حسب الروشتات المجانية التي تطل عليك

يوميًّا عبر فيس بوك، ومع ذلك فالتعب محيط بك، كل قطعة في جسدك تود أن تنخلع لتستقر بمفردها عارية في نسمة هواء باردة بدون أدنى مسؤولية عن أي جزء آخر في جسدك، المخ يريد أن يصنع لنفسه جزيرة تواجه غروبًا لا يجرحه شيء سوى صوت الموج، القلب يريد أن يتخلى عن مسؤوليته قليلًا، أن يتخفف من مشاعره، فلا حب أو كره، ولا أطياف قديمة تتجول حوله، ولا مخاوف تنغزه، يريد أن يتنفس بعمق وببطء، المفاصل تود أن تتوقف عن تنظيم مرور الحركة، فلنتخلَّ عن الحركة بعض الوقت، والعيون لا تطلب نومًا ولكن نظرة بلا هدف.

مدين لكل من حولي بكل ما هو حولي، يقول تشيكوف: «خير ما ننجزه هو صنيعة الجميع»، لا وجود لفكرة العبقرية، ربما كان الشخص محظوظًا بأن يحفل طريقه بمن يدعم ويشجع ويساعد ويوجه، تحتاج إلى الناس أكثر من احتياجك إلى موهبتك ومنحتك الشخصية، كل شخص صنيعة أسرة وجيران وأصدقاء ومعلمين وأولاد حرام ولصوص وحكماء ونفوس نزيهة وقلوب مريضة.

شغلتني في بعض الأوقات فكرة الندم على «الوقت الضايع»، ثم اكتشفت أنه ليس هناك وقت ضائع ولا حاجة، الوقت المنقضي في تأمل سقف الغرفة والاستماع إلى وردة الجزائرية هو جزء من شخصيتي ووجهة نظري، كل المعادلات الكيميائية بانفجاراتها وحرائقها ودخانها الكثيف ينظر إليها الواحد الآن وتحيره المعجزة التي نتجت عنها، أنا ابن هذه الانفجارات، كل ما «ضرب في وشي» أنا مدين له.

أؤمن أن الفشل نسبي، والنجاح لا يعتمد على المهارات قدر اعتماده على المغامرة، لا معنى للنجاح إذا كان الطريق واضحًا للجميع بقواعد ثابتة وكلاسيكية، ستكون قصص النجاح كلها نسخة واحدة تتغير فيها أسماء الأبطال ولا تتغير النهايات، الإثارة كلها في أن يكون نجاحك نسخة من شخصيتك، ولا يشبه أحدًا.

لا يمر أسبوع دون الاستماع مرة واحدة على الأقل إلى ألبوم «شبابيك» وأغنية «مش عوايدك»، ومشاهدة نصف ساعة من «المشبوه» أو «الحريف» أو «الكيف» أو «سواق الأتوبيس»، وحلقة من «الشهد والدموع» أو «كابتن ميزو»، وواحدة على الأقل من أغنيات السبعينيات الأجنبية «ديمس روسوس» أو «خوليو إجلاسيوس» أو «البوني إم» أو «آبا» (يمكن اعتبارها وصفتي

لمقاومة التجاعيد). أعرف أكثر من عشر وصفات لعمل الشاي بـ«النعناع، القرنفل، الزنجبيل، الإيرل جراي، اللبن، الحبهان، الحبق، المرمرية، العدني، الكرك»، وفنجان القهوة الصباحي بالنسبة لي هو تطبيق نظرية الخواجة «a hug in a mug»، إذا صادفت القهوة مرة أخرى خلال اليوم تكون بمثابة تطبيق لنظرية «ياما جاب الغراب لأمه في عيد الأم»، أرتاح للون الأسود في الملابس، والأبيض في الطلاء، والأبيض أبو خطين حمر في كرة القدم، أكلتي المفضلة تتغير كل عامين تقريبًا بعد استنفاد كل جمالياتها، كافأني فرع كنتاكي في مرة بجردل ٤٠ قطعة هدية بصفتي أفضل عميل في أحد الشهور فكانت النهاية، وطلب مني عم عطية صاحب عربة الفول التي تبدأ العمل فجرًا بعد أن اعتاد وجودي كل يوم أن أذهب معه بسيارتي إلى مدخل المعادي لنأخذ الدماسة من السيارة التُّمن نقل التي تعطلت هناك، وعلق محل رغيف حواوشي صورتي مع الشيف خلف الجريل.

تعلمت أن أتكيف مع ما تفرضه عليَّ الظروف، طبيعة الحياة أن تستمر وتتحرك، تتجدد كل فترة مهمة البحث عن الطريقة التي تجعل حركتها سلسة، أهادن أيام الكآبة بالمشي والنتفليكس وزيارة سوق الجمعة أو سوق سينما ديانا، الأكل الحلو ومشوار الإسكندرية، شراء البخور، اللعب مع الأطفال، وجلسات الميديتيشن أمام الجملة الوحيدة التي اخترت من بين كل ما كتبته أن أعلقها على جدار غرفة مكتبي: «وأجمل ما عندي إيمان بالله.. وباقول يا رب تكون في العون».

احترفت الكتابة في اللحظة التي اكتشفت فيها أنني لا أجيد أي شيء آخر، ربما لا أجيد الكتابة أيضًا، لكنها مشيت معي وفُتحت لي ثغرة تسللت منها إلى الشغلانة في غفلة من مباحث المصنفات الفنية وبوليس العمق.

الكتابة لأمثالي هي «صرفية» طبيب يعرف جيدًا أنها علاجي الأمثل، من حسن حظي أنها في جزء منها «أكل عيشي».

طموحي في الكتابة أن أكون سهلًا وقريبًا، لا أنافس كُتابًا آخرين لكنني أسعى لمنافسة شاي العروسة في مكانته عند الناس، أحلم أن أحوِّل كل ما في هذا البلد إلى كتابة، شوارعه وطعامه وشرفاته، كتابات جدرانه وأغانيه ومداخل بيوته، كراكيبه ومزروعات شبابيكه ومساند جلسة مُسنيه.

كتبت الرواية والشعر والقصص القصيرة والمقال والأغاني وأفلام السينما وبرامج التلفزيون، الأعمال القريبة إلى قلبي كانت فكرة غير مريحة وسؤالًا

أهرب منه دائمًا، ثم اكتشفت كالعادة أنه هروب أحمق، هناك أعمال لها مكانة خاصة، أغاني «حبيبي الأولاني» و«عندي أمل» و«٦ صباحًا»، فيلم «يوم مالوش لازمة»، كتاب «إذاعة الأغاني»، كارتون «سوبر هنيدي»، المسلسل الإذاعي «دفعة محمد صلاح»، حلقات «وصفولي الصبر».

أتمنى أن تجد في هذا الكتاب متعة توازي تفضلك على الكاتب ودار النشر باقتطاع جزء من ميزانيتك لشراء نسخته الأصلية، ويسعدني تلقي تقييمك للتجربة على: Omertaher@yahoo.com

تصحو ابنتي كل نصف ساعة تشكو من ألم في معدتها، نتبادل أنا وأمها الجلوس إلى جوارها حتى تنعس، لكنها سرعان ما تستيقظ شاكية ثم تصارع لتروح في النوم مرة أخرى.

إلى جوارها أفكر إن كنت شخصًا أنانيًّا، زج بشخص آخر إلى تجربة الحياة بكل ما فيها من آلام، تزوج وأنجب ليفرح بالأطفال ويختبر الأبوة ويجد لنفسه سندًا يعينه في الشيخوخة، تسعده ضحكات الأطفال من حوله طوال عزوبيته حتى يفكر أن يقتني بعضها في منزله بقية عمره. أدقق فأرى التفكير في الإنجاب جاء من أرضية تفكيري في نفسي وسعادتي واستقراري وتأمين احتياجاتي في الأيام التي لا بد لي فيها من آخرين أتكئ عليهم.

يحاول الإنسان أن يصنع لوجوده معنى، الإنجاب يساعدك على النجاة من هذه المشقة بسهولة. تحول أنظار نفسك عن نفسك، يتعذب الواحد إذا طال انشغاله بروحه، أنت تجلس أمام شخص لا يحيد عنك بصره طوال الوقت، تنقذ نفسك بـ«حتة عيل»، ربما تشكو بعد قليل أنك لم تعد تعيش لنفسك، في أبعد نقطة تعرف أنها نعمة.

تفقد الأهداف بريقها سريعًا، يخفت الطموح ويبهت الشغف، عند لحظة ما تتفادى النجاح والفشل معًا، تفتش عن سعادة نوم عميق، ونَفَس منتظم، وصحة تؤدي الغرض، وشاي وبُن وسُكَّر بكميات مطمئنة، وراديو في شباك يطل على شرفة جيران زرعوا الياسمين في صفيحة سمن الهانم، تفتش عن الحد الأدنى من كل شيء، تراه مبهرًا وقد يفيض عن الحاجة، ثم يظهر طفل يجعلك توسع دائرة الطموح، يمنحك مبررًا للحياة بإخلاص، ربما يدفعك لـ«تكسير الدنيا».

لم أفكر فيما سيعانيه هذا الشخص الذي كنت بوابة مروره إلى الكوكب، لم يمر ببالي أنه قد يختبر المرض وآلامه، الغيرة وجحيمها، الإحباط العاطفي، الأزمات بكل أنواعها المادية والوجودية والنفسية، الغربة، ارتباك المراهقة وأزمة منتصف العمر، الوحدة وخيانات الأصدقاء، كلمة ثقيلة الدم مؤذية، أحلامًا يتعذر تحقيقها، آخرين يفسد طمعهم حياته، الصداع النصفي، خشونة الركبة، حادث سير، ضياع الموبايل، الظلم بكل تجلياته.

يختبئ خطر تجربة قيادة السيارات في يقينك الخاطئ أن كل من حولك يجيدون القيادة، وهو الخطر نفسه في تجربة الحياة.

والفراق! كيف فاتني أن أضعه في حساباتي؟ سأسقط يومًا بينما هي تخطط لمفاتحتي في قصة ما، أفكر أن أعبئ حياتها بذكريات طيبة تجعل غيابي مقدورًا عليه، ثم اكتشفت المغزز، الاستثمار في الذكرى الطيبة استثمار في ألم مؤجل، كيف ستتعامل مع الموضوع؟ سقط خالي وكان الأقرب، لم أجد طريقة للتعامل مع الكارثة سوى الإنكار، لم أنكر وفاته، لكنني أنكرت أنه كان موجودًا من الأصل، قررت أن أتعامل معه كشخصية وقعت في غرامها على هامش رواية حلوة قرأتها قبل عدة سنوات، لأنني في لحظات الفوقان أكتشف أن غيابه نصل مثبت في عنقي يؤلمني أنه هو الذي سدده.

لا أجرؤ على التفكير في أي سيناريو آخر بخلاف غيابي أنا، قال قريب لي لوالدته على سبيل التعبير عن محبته لها في جلسة رضا: «ربنا يجعل يومي قبل يومك»، سقطت الأم، نقلوها إلى المستشفى، عادت بعد أيام إلى بيتها وقد تعطل نصف جسدها لمجرد تصوُّر الفكرة.

أغلب الظن أنني لم أفكر إلا في الاستمتاع بالأبوة والأسرة وما يضيف إلى حياتي الشخصية. نعمة كبيرة أضافت إليَّ بالفعل، بددت كثيرًا من آلامي ومخاوفي، حسمت ترددي، أزالت صدأ ما كان يتراكم فوق إدراكي وضميري، منحتني طريقة جديدة أنظر بها إلى نفسي وما يجب أن تكون عليه، طبطبة مجانية وحبًّا صافيًا وابتسامة أقوى من الفولتارين الـ١٠٠٠.

لكنني لم أدقق ساعة القرار في مسؤولية أن «تصون هذه النعمة»، وهي مشقة يفسد التفريط فيها كل شيء.

أطمئن نفسي بأفكار من نوعية أن كل ما أفعله في حياتي مرجعيته استقرار هذه النعمة ورعايتها، ماديًّا وتربويًّا ونفسيًّا وترفيهيًّا، لكنْ هناك ألم لا دخل لي بالسيطرة عليه أو محاربته، ألم التجربة الشخصية.

أقول لنفسي: آلام التجربة ثمنها ندفعه جميعًا، قدر لا مفر منه، الخدمة الوحيدة التي يمكن أن أقدمها إلى ابنتي أن أعينها على اكتشاف طريقة تنظر بها إلى الألم، فتتحسن قياسات البصيرة، أن أكون ملاحًا حين يشتد الموج، ذاكرة عندما تختلط الأمور، قائد المشجعين عندما تحتدم المنافسة، وسادة لتفريغ الغضب، شيفًا عند فقدان الشهية، وبلياتشو إذا لزم الأمر.

أفكر أن أضيف المرشد السياحي إلى القائمة، الشخص الذي يدل ضيوفه على الكهوف التي تخبئ المتعة وتبتلع مشاق التجربة... طعم المانجو، شجرة

الكريسماس وملابس العيد، الحياة في كنف جدة تسقط كل القواعد، وجد يتعامل مع مشكلاتك الصغيرة كأنها مشكلاته الشخصية، الفرابتشينو بالكراميل في كوب عليه اسمك يشاركك افتتاحية الصباح، بدايات كل شيء، الحب والنجاح وطريق المطار، الأغاني والأفلام الحلوة وصحبة قاعات العرض، الطواجن وصواني البسبوسة والعسلية بالسمسم، الرقص والشعر والرسم والروايات والشاي بالنعناع، النجاح، تشجيع فريق تحبه، اللمَّة تحت بطانية ثقيلة في الشتاء «للنأنأة» والثرثرة، قط تربيه وزرعة ريحان ترعاها، وآخرون يمنحك دعمك لهم ثقة بالنفس وسعادة ناعمة، حذاء أعجبك في فاترينة، شباك سيارة تمر بطريق جديد عليك، ورقة شجر تسقط فوق كتفك، غريب يبتسم لك، بائع فريسكا على الشط، خبز طازج وساخن لا تحتاج حلاوته إلى حشو، أن تحب ويجمعك بمن تحبه بيت، ثم أن تنجب طفلًا يعلمك الحكمة وهو يكبر ليغادر، كما يقول محفوظ: «هذه هي الحياة، ومصير كل أسرة إلى التفرق السعيد ـ على ما به من حزن ـ ليبحث كل واحد عن دوره الجديد»، ستكبر الطفلة وترحل، هذه الفكرة المزعجة جعلتني أخمن إلى أي مدى ابتلع أبي وأمي آلامهما الشخصية حتى لا يعطلا انطلاقي بعيدًا.

قالت زوجتي: «رقيقة أخاف عليها». قلت: «من حسن حظ الواحد أن تقوده رقته. الرقة خليط الذكاء والرحمة». قالت: «العالم قاسٍ». قلت: «ستنقذ كل من حولها».

كانت جرعة الحكمة عالية الصوت، أيقظت الطفلة، تأملتنا ونحن شاردان، كان كل واحد منا ممسكًا بكف من كفيها، سحبت ذراعيها وخبأتهما تحت البطانية، أرسلت إلى كلينا قبلات في الهواء، ثم راحت في نوم عميق.

تذهب إسلام أباد إلى النوم مبكرًا.

أماكن قليلة تسهر يحتاج الوصول إليها إلى شخص على معرفة جيدة بكواليس المدينة.

نزلت إلى ريسبشن الفندق أجرب حظي.

سألت موظفة الاستقبال عن مكان يقدم طعام العشاء، اقترحت منيو خدمة الغرف، اعترفت لها أن البيتزا المارجريتا مقبضة في الغربة وأنني أفتش عن وجبة باكستانية للذكرى. اقترب منا شاب أمريكي من أصول أفريقية، ملامح باسمة وقامة فارعة نحيلة وجاكيت جلد أسود، شاركته الموظفة أحزاني، ابتسم الشاب وسحبني من ذراعي باتجاه الباب قائلًا إنه في الطريق إلى المكان الوحيد الذي يسهر في إسلام أباد، ويقدم الطعام والموسيقى والمرح.

تاكسي في انتظاره انطلق بنا من أمام الفندق، لم أفكر كثيرًا، أسلمت نفسي للاسترخاء مع أغانٍ هندية ناعمة، وظلام من نوع خاص كانت تخترقه سيارتنا على مهل، ظلام إسلام أباد لا علاقة له بالمدن، أقرب إلى ظلام الغابات، أشجار كثيفة تكشف أضواء السيارات استحالة تخيل كثافتها، ينطلق كل قليل عابرًا الطريق مسرعًا خنزير بري تلمع عيناه، يضحك السائق كلما نجح في تفادي واحد.

تعطل التاكسي على بوابة الفندق الذي اصطحبني إليه الشاب، قال سنسير قليلًا وسيتكفل السائق بحل مشاكله، سألته إن كنت سأشارك في دفع الأجرة فقال: «ليس الآن».

الفندق أفضل حالًا من الذي تقيم فيه بعثتنا الصحفية، قادتنا السلالم إلى دور سفلي كانت تنبعث منه موسيقى صاخبة، فتح رجل الأمن الباب وتبادل التحية مع دانيل، كان واضحًا أنه وجه مألوف في المكان، يحييه الجميع حتى اخترقنا الظلام الذي تزيده أضواء الليزر تعقيدًا، ووصلنا إلى مائدة صغيرة بالقرب من البار.

مر على بعثتنا ما يقرب من عشرة أيام في باكستان، لم يصادفنا ما قد يدل على وجود مكان من هذا النوع في المدينة.

بدأت الألفة تنعقد مع الظلام بما يسمح بالتأمل وإن كان مشوشًا قليلًا.

تتراص في أركان الملهى فتيات خمنت أنهن روسيات، وكانت لديَّ أسبابي.

تبادل دانيل الحديث مع معظمهن، رأيته وهو يسحب اثنتين منهن باتجاه

منضدتي يحملن كانزات البيرة، صافحتني واحدة وعادت إلى الرقص، وجلست الأخرى دون تحية، ثم دخل دانيل في الموضوع مباشرة. عرض أن أختار أيًّا منهما لقضاء الليلة مقابل خمسين دولارًا، شرط أن يكون الدفع له قبل الانصراف. قبل أن أرد قال: «يمكنك أن تختار بعد الرقص معهما، لا تقلق فالليلة طويلة».

أزعجتني جملة «الليلة طويلة»، أزعجني أكثر أنني رأيت شخصًا آخر عندما دققت في ملامح دانيل، لاحظت أن الشاب الأمريكي الأسمر لديه فتحة أنف أكبر من الأخرى، وثمة حور في عينه اليسرى زادت حدته وهو يعرض عليَّ بضاعته. احتل التوتر أفكاري، أول ما فكرت فيه هو الهروب، اعتذرت عن عدم قبول عرضه وتحججت بأنني قد أنصرف بعد نصف ساعة بسبب ارتباطات المقابلات الصحفية التي سأجريها غدًا في الثامنة صباحًا، قال: «لن تجد وسيلة للعودة إلى فندقك، ليس أمامك سوى انتظار التاكسي الذي قادنا إلى هنا لنرجع به معًا».

انشغل دانيل بزبائن آخرين، تأملت الفتاة التي تجلس إلى منضدتي، زادت غصتي بملاحظة كم كانت بائسة زائغة العينين تقاوم بكاء ما.

تحركت باتجاه مدخل الفندق، من المؤكد أنني سأجد ليموزين أو سيارة تاكسي أو سيارة من أي نوع لتنتشلني من مكان بدأ مرحًا وانقلب فجأة مخيفًا، لا علاقة للخوف بكل ما سبق، له علاقة بأنني وجدت مدخل الفندق فارغًا تمامًا، لا زبائن، ولا موظفين، ولا رجال أمن على الباب.

تذكرت أغنية «hotel calfornia»، المسافر الذي أعجبه فندق على الطريق فدخل إليه واستمتع بالرقص والغناء والشمبانيا لكن في أجواء مريبة، تأكدت عندما هم بالانصراف وقال له أحد الحضور:

You can check out any time you like

But you can never leave

قطع مخاوفي عامل يخرج من أحد الأبواب حاملًا كيس قمامة كبيرًا، طردت كل الهلاوس التي تحاول تخمين محتويات الكيس، واقتربت منه أسأله عن المواصلات، فهمت بخليط اللغات والإشارات التي تحدث بها أن التاكسيات تأتي بعد انتهاء السهرة وأشار إلى الساعة الثانية.

شعرت ببعض الارتياح، قلت لنفسي على الأقل أنت في مكان عام، فندق وصالة موسيقى وجنسيات مختلفة.

ميزة المكان العام لم أكن لأقدرها قبل يومين.

طلبت من عابد سائق التاكسي رفيق بعثتنا الصحفية أن يساعدني في زيارة بيت باكستاني، زيارة من هذا النوع تحتل صدارة أولوياتي في كل سفرية، دخول بيت يعيش فيه سكان البلد الأصليون يحرك القلب ويغير مقاساته بقوة تفوق الأثر الذي تتركه زيارة الأماكن السياحية. البيت يخبرك عن البلد وناسه الكثير، تنام المعرفة والمشاعر في كل ركن، أسرَّة ومفروشات ورائحة وطعام وتقاليد وطريقة تعامل مع الضيوف، موسيقى ولوحات وصور عائلية على الجدران، حمَّام بتفاصيله ومطبخ بشخصية البلد، شرفة وغرفة نوم أطفال ومكتبة وملابس وإكسسوارات وفضفضة ملؤها الراحة مع ضيف أجنبي.

لم أتحرَّ الدقة اللازمة وأنا أطلب مساعدة عابد في الموضوع.

فرحت عندما اتصل بغرفتي قائلًا: «سأحقق لك رغبتك».

لم أكن مرتاحًا لفكرة أنه توقف بي أمام فيلَّا، مكان لن يوفر لي ما أبحث عنه، الثراء يخفي ملامح أصلية، يضع مكانها أجهزة حديثة ومفروشات أمريكية والكثير من الجبسون بورد والكوفي ماشين وستاندات الإضاءة الوورم، لكنني تحاشيت أن أحبطه.

فُتح الباب الذي كان يخفي خلفه ضجة عارمة، توقعت أنني على وشك الانضمام إلى حفل عيد ميلاد صاخب، لكن ثواني قليلة من تأمل طبيعة الملابس والمشروبات والجلسات الثنائية في مختلف الأركان مع قدوم امرأة خمسينية ترحب بي وقد كشف فستانها أضعاف ما كشفته وثائق ويكليكس جعلني أشك أنني في بيت دعارة، تأكد شعوري عندما لاحظت أن عابد سائق التاكسي يمسك بكأس، يقف في منتصف ريسبشن الفيلَّا بملابسه المهلهلة يلاطف فتاة شقراء ترتدي ما يشبه الملابس، أجلستني الخمسينية على فوتيل، وطلبت مني أن أعتمد على نفسي في قضاء وقت ممتع.

حاولت أن أرتب أفكاري.

الحل الأضمن أن أنتظر انتهاء عابد من فقرة المرح التي كان غارقًا فيها ثم أطلب منه الانصراف، فهمت أنه ترجم رغبتي في زيارة بيت دافئ وحميم إلى زيارة بيت يكسر سقف الحميمية أصلًا.

لمحت رجلًا يميل عليه وهو يرقص فتغيرت ملامحه، تحرك ناحيتي مسرعًا وسحبني من يدي، كان يهرول خارجًا من الفيلَّا حتى وصلنا إلى التاكسي، وما

إن تحركنا حتى أشار إلى مرآة الصالون. كان عدد من سيارات الشرطة يدخل إلى المنزل.

قال: «روسيات هاربات، يقمن بدون أوراق رسمية».

جلست في مدخل الفندق أدخن وأراقب الساعة، يظهر موظف الاستقبال كل نصف ساعة، نتبادل الابتسامات فأطمئن قليلًا ثم يختفي، أتأمل تفاصيل اللوبي، الفندق فخم للغاية، لكنه لسبب ما يبدو مهجورًا، لم يرن تلفون الاستقبال مرة واحدة، لا عمال يظهرون، لا شخص يطلب مني أن أتوقف عن التدخين مثلما يحدث معي منذ بدأت الزيارة، المصعدان مفتوحان طوال الوقت ولم يغادرا الطابق الأرضي.

عندما اقتربت الساعة من الثانية كان دانيل يصعد السلم قادمًا من القاعة ومعه الروسيتان، تركهما عند المدخل واقترب مني بابتسامة كانت قد فقدت تأثيرها، وجدد العرض، قال: «يمكنك أن تصطحب الفتاتين بسعر واحدة».

كررت اعتذاري، تحاشيت أن أجرح كرامته كقواد، فشرحت له ملابسات الرفض، زميل الغرفة وبقية أعضاء البعثة وكوننا جميعًا تحت المراقبة.

أنقذني من الجدال والكذب وصول التاكسي.

أسرعت لاحتلال المقعد الأمامي وتركته يجلس إلى جوار الروسيتين، كان الحوار بينهم هامسًا لم أتبين تفاصيله كاملة، لكنني لم أهتم.

عند أحد المنحنيات كانت سيارة الشرطة في انتظارنا.

يقف الكمين في نقطة ذكية يصعب الهروب منها، توقف سائق التاكسي مذعنًا وأطفأ المحرك.

طلب منا الضابط الباكستاني أن ننزل من السيارة، فحص أوراق الجميع، ثم تشمم رائحة أفواهنا، طلب من دانيل ومرافقتيه أن يصعدوا إلى سيارة البوليس، حاول دانيل أن يعترض فتلقى لكمة من النوع الباكستاني في منتصف قفصه الصدري أخرسته تمامًا.

أعاد لي الضابط جواز سفري، وفهمت أنه يطلب من السائق الانصراف.

تعطل التاكسي من جديد، كان السائق يحاول تشغيله وأنا أدعمه بالدعوات قبل أن يعود الضابط في كلامه. بينما السائق يحاول اقترب الضابط مني قليلًا، قال: «إيجيبت»، هززت رأسي مبتسمًا، حاولت أن أفتش عن رد مناسب، كانت الكلمة طوق نجاة عليَّ أن أتعلق بأقوى نقطة فيه، رسمت بذراعي شكلًا هرميًّا وقلت له: «بيراميدز»، ارتفع حاجباه وطال عنقه قليلًا

وهو يشيح بذراعه كأنه يصف معجزة أكثر أهمية قائلًا: «شيخ عبد الباسط».

سمعت تصفيق الجمهور وتهليله لحارس المرمى الذي كنته ثلاث مرات.

«بورة» نجم اللعبة في أوساط مراهقي المدينة، انفرد بي أنا والمرمى وكانت الفضيحة وشيكة.

قادمًا من نصف الملعب كانت ابتسامة الزهو تكلل نظرته وهو يرفع مقاسات الاستعراض القادم. أيقنت أن الفرصة الوحيدة للنجاة من مسح الكرامة أن أضع نفسي مكانه.

استعرت طريقة تفكيره.

لن يسدد، سيجتهد في ألا يصبح الأمر مجرد هدف، يريد مشهدًا للذكرى. لا مفر من المراوغة. يستخدم يسراه بمهارة عالية يمكن للواحد أن يثبت بها صحة نظرية دارون.

كانت الخطة أن أفترش الأرض أمام يسراه، لكن ساقيه طويلتان، مهما شددت جسمي وفردته فلديه القدرة على أن يجنح يسارًا بما يكفي للهروب. قررت أن أتقدم خطوات مستغلًّا النشوة المبكرة التي يخطو بها فأضيق عليه فرصة المراوغة، جريت باتجاهه فاستقر في يقينه أن المراوغة ستكون عادية «على الواقف»، فتمهل قليلًا محبطًا، انزلقت فاردًا ذراعَي وساقَي على أقصى اتساع ممكن، تقلصت مساحة الاستعراض المتاحة وأدرك أن التسديد في المرمى أضمن، تلقيت التسديدة في صدري، كان الأدرينالين في ذروته بما يكفي للانقضاض مجددًا على الكرة التي ارتدت والإمساك بها.

منحني تصفيق الجمهور القليل نشوة عظيمة أفسدها أحدهم بعد المباراة، قال: «يحيرني مستواك، أحيانًا تبدو كحارس مرمى عالمي، وأحيانًا تؤدي كحارس شوربة». ابتسمت ولم أعلق.

مر على الواقعة ما يقرب من ثلاثين عامًا، أستعيد ذكرى تعليق هذا المشاهد كل ليلة تقريبًا قبل النوم. اليوم أصبح الكلام «أكل عيشي» وامتلكت القدرة على الرد، في كل مرة كنت أجد واحدًا أفضل من الذي عثرت عليه في الليلة السابقة.

المرة الثانية في المدينة التي انتقلت إليها تبعًا لظروف عمل أبي، انضممت إلى فريق النادي ضمن الأشبال، صُعِّدت سريعًا للتمرين واللعب مع الفريق الأول، كانت مجاملة لوالدي اجتهدت في أن أنفيها، بذلت مجهودًا كبيرًا جعل المدرب يمنحني الفرصة لحراسة مرمى الفريق في مباراته الودية ضد نادي

مدينة مجاورة.

في الملعب كنت يقظًا وكأني أحرس مرمى أبي.

كل ما حلمت به أن تمر المباراة بسلام يسكت الألسنة. كانت أجواء اللعب هادئة، حتى مر مهاجم الفريق المنافس مقتربًا من منطقة الجزاء، لمحت قوة التسديدة التي هو مقدم عليها من ملامح وجهه، اختفى أنفه وبرزت عروق عنقه ومال بوجهه في أقصى اتجاه معاكس لاتجاه بقية جسده ثم رفرف بذراعيه وكأنه على وشك الطيران.

لم يحدث طيلة عمري أن حلَّقت بجسدي وارتفعت فوق سطح الأرض للمسافة التي سجلتها في هذا اليوم، كنت خفيفًا فسبحت باتجاه زاوية المرمى كطائرات الفصل التي كنا نصنعها من كراسات الواجب، أذكر أن أصابعي لمست النقطة التي يلتقي فيها القائم مع العارضة، النقطة التي توقفت عندها مسيرة التسديدة، حولت الكرة بأطراف أصابعي إلى خارج الملعب، في طريقي إلى الأرض كنت أسقط على صوت صيحات مجنونة وتصفيق منحني همة القيام سريعًا والتقاط رفعة الركنية بثبات. أسعدني أن الخبر وصل إلى أبي عن طريق آخرين، استقبلني في المنزل مهنئًا، سعيدًا بما سمعه، أهداني ميدالية مفاتيح فضية، وأهديته التصفيق الذي رج الملعب.

المرة الثالثة في المدينة الجامعية، كنت اعتزلت اللعبة تقريبًا، أفتش عن فرصة في «ملعب جديد»(*)، الكتابة، ضاع الشغف القديم وبقيت في حوزتي إكسسوارات المهنة، قفازات ذات ماركة عالمية، وفانلة حارس مرمى أديداس سماوية تشبه التي ارتداها حارس مرمى مصر في كأس العالم في إيطاليا ٩٠، وبنطلون بُطنت حوافه بمربعات الإسفنج، وحذاء أصلي باستارزات.

في دورة كأس المدينة الجامعية تتنافس المباني، كان فريق المبنى الذي أقيم فيه بحاجة إلى حارس مرمى، صديق قديم فضح سري فاجتمع الفريق في غرفتي يقنعونني بالانضمام، قال أحدهم ساخرًا: «يكفي أن يراك الفريق المنافس بطاقم حارس مرمى محترف حتى تهتز ثقتهم قليلًا، وربما يشعرون باليأس قبل أن تبدأ المباراة».

نجحت خطة الطاقم. كان الفريق المنافس يقترب من المرمى الذي أحرسه بحذر، حتى امتلك أحدهم شجاعة مررته من الدفاع، اقترب مني وقرر أن يقلص المسافة حتى يصبح وضع الكرة في طرف المرمى من الصعوبة

على أي حارس أن يتعامل معه. تركته يقترب ثم تقدمت خطوة بينما يسدد بيسراه قذيفة خبيثة أرضية زاحفة، كنت أحتاج إلى الدعم فقررت أن أعامل الأرض الترابية معاملة الجليد، ارتميت بقوة تجعلني أتزلج لأكسب مسافة لن أقدر عليها بجسد هجر التمرين وهجرته اللياقة، كانت الخطة ناجحة، جعلتني ألمس الكرة بأطراف أصابعي لمسة غيرت مسارها قليلًا وجعلتها تصطدم بالعارضة فتعود إلى يدَي بسهولة، قمت سريعًا وأرسلتها عالية لأحد أفراد فريقي، كان الملعب لا يزال مشغولًا بالمعجزة التي حدثت منذ قليل، مما سهل عليه مهمة أن يحرز هدفًا أشعل الملعب، جرى ناحية الجمهور سكان المبنى، لكنهم كانوا في اللحظة نفسها يجرون باتجاه حارس المرمى ليهنئوه. سهلت الغيرة عليَّ مهمة الاعتذار عن عدم الاستمرار، مع وعد بأن يكون طاقم حارس المرمى تحت أمر من يختارونه بديلًا لي. استعاره لاعب فريقنا صاحب الهدف، ربما كان يفتش عن حفاوة جماهيرية تختبئ في الطاقم، في المباراة التالية مُني مرماه بخمسة أهداف، أعاد لي القفاز بعد أن كتب على باطنه بالقلم الفلوماستر «مونو إطسا الفيوم».

أستعيد هذه اللحظات كثيرًا، أحتفظ بمشاعرها في مكان ما لا أعرفه، سقط التراب الذي سففته، وبقي التصفيق، يعود صافيًا كما حدث في لحظته، يربكني أنه في كل مرة يعود محملًا بالخجل نفسه.

لا أحد يعرف بدقة الطريقة التي تتجمع بها الأرواح المتشابهة عند نقطة واحدة. منتصف التسعينيات، كلية التجارة الخارجية ودفعة جديدة تتجمع في فناء الكلية بخليط من الخجل والقلق والشعور بغربة ما، ما هو السيناريو الذي تحولت هذه الآلاف بنهايته إلى مجموعات متشابهة، لكل واحدة قصة؟

قصتي من أرضية «العصبية»، القادمون من جنوب البلاد يميزون بعضهم بسهولة في هذه الأجواء بفضل «اللكنة»، تحولت لهجة البلاد البعيدة إلى خيط مسبحة، وكان الشعور بالغربة يلم الحبات المتناثرة في عقد واحد. لحسن الحظ أن هذه المسبحة كانت تضم المهتمين بالقصة والشعر، صرنا كتلة سرعان ما كبرت لتضم الأكبر سنًّا ثم ضمت المهتمين أبناء العاصمة الذين يعرفون الطريق لمقابلة الأسماء الكبيرة التي كنا نتغنى بأعمالها ورؤيتها رأي العين.

سيد حجاب سيلقي الشعر اليوم في حزب التجمع.

محمود درويش سيزور معرض الكتاب هذا العام.

أحمد فؤاد نجم يستقبل المحبين في سطوح بيته في المقطم.

خيري شلبي وإبراهيم أصلان يوجدان بصفة منتظمة في مقهى ريش.

أسماء لها رهبة، فكرة الالتقاء بهم وجهًا لوجه ساحرة، تطيِّر النوم وتضخ الأدرينالين. كانت طاقة الواحد تليق بكائنات ضخمة منقرضة تسمح له أن ينتقل من شمال العاصمة إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها عدة مرات في أقل من أربع وعشرين ساعة، طمعًا في أن يصافح أحد هذه الأسماء أو على أقل تقدير أن يلتقي محبين آخرين مهتمين بالكتابة ويشقون طريقهم، اتسعت الدائرة بالوقت، وبدأت الندوات والتجمعات الثقافية تصبح قوام تفكير الواحد في برنامجه اليومي، وما دون ذلك كان على الهامش.

كانت تلك المشاوير تبدأ وتنتهي من نقطة واحدة: «مقهى زهرة البستان»، نقطة الانطلاق، نقطة التجمع إذا ما ضعنا من بعضنا البعض خلال اليوم. هناك أيضًا كان اليوم يضيع في الانتقال من منضدة إلى أخرى إذا لم يكن لدينا ما نفعله. في البداية كان الواحد يراقب من بعيد سكان هذا المقهى الذين قطعوا مسافة بالفعل على طريق الأدب،

ويراقب تصرفاتهم خلسة حتى لا يبدو في نظرهم شخصًا متطفلًا أو مزعجًا، بمرور الوقت كانت الحواجز تذوب، كانت الترابيزات تقترب من بعضها أكثر حتى أصبح الواحد صاحب مكان وليس ضيفًا، إلى أن أصبح رقم تلفون المقهى هو رقم تلفوني الشخصي.

إبراهيم داود، أحد أهم رواد «زهرة البستان»، نعرف من بعيد ومما يكتبه أنه شاعر كبير. كان بشوشًا بما يكفي لأن يكون صاحب الخطوة الأولى في التعرف على وجوه جديدة تجلس في أي ركن من أركان المقهى منزوية صامتة، كان كريمًا بما يكفي لأن يوفر عليك حرج عرض ما تجيده بأن يبادرك هو بالسؤال: «بتكتب؟»، ثم يفتح لك قلبه بمحبة صافية طالبًا أن هاتِ ما عندك.

كانت صحيفة «الدستور» القديمة انقلابًا في عالم الصحافة، داود شريك في التجربة، وذات ليلة بينما أستعد لمغادرة المقهى وحيدًا بعد الحادية عشرة مساء حيث لم يظهر أحد من الأصدقاء في هذا اليوم، صافحته وسألني عن وجهتي وكان باديًا أنني لا أمتلك واحدة، طلب مني أن أرافقه الطريق إلى مقر «الدستور» الذي يبعد عشر دقائق قائلًا: «مش عايز تحط إيدك معانا في الجرنان؟». قلت: «أحب الكتابة ولا أفكر في احترافها». قال: «تعالَ أعرفك على الناس يمكن الجو يعجبك».

عشر دقائق، قطعناها في نصف ساعة، داود يمتلك من الحكايات ما يجعلك لا تتعب من قطع المسافة من القاهرة إلى الإسكندرية سيرًا على الأقدام، يحفظ كل نقطة في وسط المدينة مر بها شخص عظيم ليأكل أو ليشرب أو ليتشاجر أو ليحب أو للاقتراض (حجازي الرسام، يحيى الطاهر عبد الله، أمل دنقل، نجيب محفوظ...)، حتى وصلنا إلى مقر الجريدة.

كان مشوارًا مسحورًا، شاعر كبير يدندن: «أفوت على بيت الحبيب أقول جريح يا أهل الهوى»، وشاب يفتش عن بداية لا يعرفها، يتأملان معًا شرفات الشارع التي خبأت لسعة البرد سكانها، يضحكان ويستدعيان القصائد القديمة والحكايات، حكايات لا يتذكر الشاب الصغير منها سوى أنه بنهاية المشوار كان قد وضع قدمه في عالم لم يخرج منه إلى يومنا هذا.

عاد قريبي من القاهرة وكانت هديته لي شريط فيروز.

فيروز التي أعرفها كطفل قلبه معلَّق بالسينما والأغاني والتلفزيون، هي تلك الطفلة اللطيفة التي تظهر مع أنور وجدي في أفلام يسيطر عليها المرح حتى اللحظات الأخيرة التي يفرق فيها شخص ما بينهما.

توقعت أن هدية قريبي ستمنحني ليلة خصوصية مع الووكمان وأغنيات أحبها (معانا ريال، شوف يا عزيزي، طبلي وشد الدربوكة... آه آه)، وقبل انصرافه قمت على سبيل التجربة بتشغيل شريط الكاسيت. كانت المقدمة الموسيقية بعيدة تمامًا عما توقعته، قلت ربما هي أغنيات لا أعرفها من أفلام أخرى، حتى ظهرت واحدة تغني كلامًا كان بالنسبة لي محبطًا للغاية:

حبيتك بالصيف

حبيتك بالشتا

سألت قريبي الذي أضحكته المفارقة حتى نثر حبيبات القهوة التي كان يشربها من أنفه، وضرب كفًّا بكف، لكنه تراجع عندما لاحظ شعوري بعدم الراحة والغيظ، فوعدني بنبرة تمتلئ بالشفقة والحنان أن يصلح غلطته في المرة القادمة، ولم أره بعدها ثانية لأنه سقط بسيارته بعدها بأسبوع في نهر النيل في طريقه إلى القاهرة.

كانت نهاية علاقتي بفيروز، أو هكذا قررت وقتها.

بعد سنوات طويلة كان هناك مراهق على وشك دخول امتحانات الإعدادية، تشغله فتاة قصيرة الشعر تكشف شمس الطريق إلى المدرسة بعض خصلاته الذهبية بدرجة لمعان قادت المراهق إلى الجنون، لم يكن هناك مجال لفتح كلام معها أو عنها، يفور قلبه بالحب ثم يتمزق بسكين قلة الحيلة، يلاحظ صديقه الناضج الذي يكبره بعام المأساة، يحاول أن يلفت نظره لسذاجته ولكونه سينساها بمجرد حلول الإجازة الصيفية، وأن ما يمر به نوعية شائعة من قصص الحب الساذجة التي يحولها الوقت إلى ذكريات يجرفها الهواء مثل أوراق الخريف. لكن لا حياة لمن تنادي.

كنت المراهق، وكان صديقي مخلصًا في محاولة انتشالي من الأوهام، حتى دخل عليَّ في يوم بشريط كاسيت مضبوط على أغنية وطلب مني أن أسمعها، كان مكتوبًا على عظم الشريط «فيروزة»، خدعتني التاء المربوطة، ظننتها مطربة أخرى فجلست أستمع بإنصات.

بديت القصة تحت الشتي

بأول شتي حبوا بعضن

وخلصت القصة بتاني شتي

تحت الشتي تركوا بعضن

لا أعرف تفسيرًا لما حدث حتى هذه اللحظة، ربما سوت الموسيقى والأفكار مشاعر المراهق، أو ربما أدرك أن هناك عالمًا آخر غير الذي يعيش داخل حدوده، ربما استيقظ الفضول وحب الحياة.

صدمات كهربائية يتعاظم أثرها كمتتالية حسابية، كان شريط الكاسيت المنسوخ فوق شريط تسجيلات من ماركة شائعة وقتها (Amir) هدية مفخخة، كانت أغنيات مسرحية «ميس الريم»، انفجرت في وجه الواحد حيرة: «سألتك حبيبي لوين رايحين؟»، وانفطر قلب المراهق مع الفتاة التي تشكو: «باتذكر شو حكيوا عليا، لما نطرت وانت نسيت»، وصفق من قلبه لأغنية كلماتها ليست سوى مكالمة تلفون: «ستي يا ستي اشتقت لك يا ستي»، ثم كان تمام الحيرة التي لا تخلو من بهجة، هذا الغموض الراقص الكامن في المقدمة الموسيقية للمسرحية.

أصبحت فيروز عنوانًا عريضًا لمرحلة جديدة في حياة الواحد، مرحلة التدقيق فيما يستمع إليه، تمييز الأغنيات التي ـ حسب تعريف فيكتور جارا ـ تمتعنا ولكن تتركنا فارغين، والأغنيات التي تفتح مع الواحد مواضيع.

صرت أفتش عن أغنياتها، كان جديدها نادرًا في الأسواق، والمتاح مادة تعيد نفسها ولا تفنى بهجتها، وكان هذا مفتاح تسلل تجربتها إلى خليط بناء الشخصية، وكان أيضًا يخبئ معجزتها في أقصى مكان داخل روح المراهق.

في ٢٠٠٢ كنت أزور لبنان، أشار صديقي ناحية بيت بعيد فوق ربوة، بيت محاط بإضاءة صفراء براقة وأشجار، قال: «هنا تسكن فيروز».

تأملت البيت وذهني مشغول لأول مرة بالذعر الذي اختبره قريبي وحيدًا وسيارته تسقط به في النيل.

١

بعد أسبوع من استلام العمل في مجلة «نصف الدنيا» استقر في يقيني أنني أعمل تحت قيادة فتاة أحلامي.

سناء البيسي رئيس التحرير.

في ظاهر الأمر كنت أتعلم، وفيما بيني وبين نفسي كنت أتأمل الفتاة التي كانتها في الخمسينيات، كيف كان شباب هذا الحضور والذكاء والثقافة والهمة وخفة الدم والروح المشاغبة التي تختلط فيها الجرأة بالبلاغة؟ ثم فكرت كيف كانت قصة حب عمرها التي لا أعرف سوى فصلها الأخير.

اتخذت القرار أن أفتش لأعرف ثم أكتب.

بدأت أفتش بعيدًا عنها لسنوات طويلة ثم حملت إليها ما عرفته.

كانت كريمة كعادتها، أخذت مني ما جمعته، تأملته ثم ألقته بعيدًا.

كانت القصة في مكان آخر.

٢

وضع المخرج عاطف سالم كاميراته ليصور بعض لقطات فيلمه الجديد في معمل التصوير الملحق بمكتب المشرف الفني لدار «أخبار اليوم»، منير كنعان. سأل كنعان عن اسم الفيلم قالوا له: «يوم من عمري».

ظهرت اللقطات التي تم تصويرها بينما عبد الحليم حافظ يغني «بأمر الحب».

كان حليم في الفيلم صحفيًّا، وصديقه عبد السلام النابلسي مصورًا.

حليم يغني لزبيدة ثروت في إحدى الشرفات مع قطع متكرر للقطات النابلسي وهو يحمض الصور التي التقطها للحبيبين.

مرت أغنية «بأمر الحب» من مكتب كنعان لتترك له رسالة تفسر الحكاية.

٣

كان الزعيم سعد زغلول يقضي ورفاقه ليلتهم في ثكنات الجيش الإنجليزي بقصر النيل تمهيدًا لترحيلهم جميعًا إلى بور سعيد صباحًا، ومنها إلى جزيرة مالطة حيث المنفى، في الوقت نفسه وُلد منير كنعان، طفلًا لأب لبناني مهاجر وأم صعيدية، بعد شهور رحل والده ليشب يتيمًا في رعاية خاله، كبر قليلًا والتحق بالمدرسة ثم رسم بالصدفة مدرس اللغة الإنجليزية، أعجب الأخير بما وقعت عليه عيناه فأهداه كراسة رسم ليمارس هوايته، ضبطها

الخال فاكتشف أن قدرات ابن شقيقته قد تفتح له بابًا للمستقبل، عثر له على عمل في شركة تصمم الإعلانات وتطبعها. كان ماهرًا وسريع التعلم، رسم لوحة كبيرة لملكة إنجلترا رآها ضابط إنجليزي فألحقه بوظيفة رسام خرائط. لكنه لم يتوقف عن تصميم ورسم الإعلانات، أسس شركته الخاصة، ثم استعان به الشقيقان إميل زيدان وجرجي زيدان لتصميم أغلفة مطبوعات دار الهلال، وهناك أسس مدرسة لفتت أنظار الجميع.

كان محمد التابعي يجدد مجلة «آخر ساعة»، وطلب البحث عمن يصمم شكلًا مبتكرًا لاسم المجلة، طلبوا كنعان، هناك تعرف على محمد حسنين هيكل، وأنهى مهمته ثم عاد إلى عمله. ثم حدث أن تولى هيكل مسؤولية «آخر ساعة» التابعة لـ«أخبار اليوم»، وكان قرار تعيين كنعان بأكبر راتب في المؤسسة حديث الجميع.

٤

لم تكن الأحداث التي يتداول الجميع أخبارها تشجع على التفكير في قرار اتخذته سناء حسين البيسي بثبات وهي تقف في بير سلم بيتها.

الحاكم العسكري يصدر قرارًا بتعطيل العديد من الصحف والمجلات (الكاتب، الميدان، الملايين، الواجب)، وعضو مجلس قيادة الثورة يهاجم في مؤتمر ما تكتبه جريدة «المصري» كتمهيد لإغلاقها، مجلة «الرسالة» تصدر العدد الأخير بقرار من إدارتها، المهنة بشكل عام تعاني بشدة.

قبلها كانت الطفلة التي أنهت قراءة «ألف ليلة وليلة» وهي في سن العاشرة، والتي كانت حديث مدرسة العباسية بعد تقدير «برافو» الذي منحها إياه مدرس اللغة العربية تعليقًا على موضوع تعبير، تقدير قادها إلى مكتبة البيت العامرة تتنقل بين رفوفها تغذي خيالها، كانت قد واصلت تفوقها حتى حصلت على مجموع عالٍ أودع أوراقها في كلية حقوق عين شمس، وبينما تستعد للعام الدراسي الجديد، وبينما المهنة في مصر تمر بظروف سيئة، مرت صديقتها بها، التقتا في بير سلم البيت، وأخبرتها الصديقة أن جامعة القاهرة افتتحت قسمًا للصحافة.

في مدرج الصحافة كان مصطفى أمين في ندوة مع الطلبة الجدد، وطلب من كل واحد أن يكتب خبرًا عن الزيارة ليختبر أسلوب الحاضرين، كتبت سناء وحصدت «برافو» جديدة قادتها هذه المرة إلى مبنى «أخبار اليوم».

كان هيكل بوابة كنعان إلى «أخبار اليوم»، وكان مصطفى أمين بوابة البيسي إلى النقطة نفسها، ليلتقي الاثنان ثم تدور الأحداث.

٥

أفكر في كم الثبات النفسي الذي تحتاج إليه فتاة في السابعة عشرة من عمرها، لتجلس دون حركة واحدة أو التفاتة تحمل باقة من أزهار المشمش أمام رجل، في ضعف عمرها، فنان كبير، نجم مشهور والفتاة من محبي فنه، قليل الكلام، يحبه عبد الناصر ويهنئه على أغلفته الساحرة، وعندما طلب كنعان مقابلة الزعيم ليُجلسه أمامه ويرسمه وافق ناصر على الفور، كان تصوير محاكمات الثورة ممنوعًا لكنهم سمحوا لكنعان أن يكون حاضرًا ليرسمها، المستشار الفني لكل إصدارات «أخبار اليوم»، يحرك جزءًا كبيرًا من مؤسسة ضخمة بمفرده، يوجه رسامين ومخرجين ومنفذين وعمَّال طباعة. كانت هي تجلس أمامه صامتة، بينما هو يغني «يا اللي نويت تشغلني، طاوعني وابعد عني»، ويرسمها.

من منهما كان يتأمل الآخر؟

النظرات التي كانت تسرقها الفتاة المتدربة عبر زجاج غرفة الفنان الكبير عندما تمر بها أسقطت في كفها شوكولاتة كبيرة على هيئة بيضة شم النسيم هدية من الفنان، ظلت الفتاة تتأملها لأيام حتى أذابها الحر، ثم جملة من كلمتين، «تعالي أرسمك»، فكان غلاف المجلة... والحكاية.

رسالة لم يلتقطها أحد، خرج عدد «آخر ساعة» في أربعاء شتوي عام ١٩٥٦ وعلى غلافها فتاة ستقود تأثيرًا كبيرًا في عالم الصحافة بينما المهنة تأخذ خطوات واسعة إلى الأمام في اللحظة نفسها.

ظهرت سناء البيسي على الغلاف بينما يخرج إلى الأسواق العدد الأول من مجلة «صباح الخير»، مع أول يوم عمل في وكالة أنباء الشرق الأوسط، واحتفاء الوسط الصحفي بعلي أمين بعد أن أقرت الدولة احتفالًا رسميًّا بعيد الأم بناء على فكرته. ماء جديد ونظيف يجري في نهر المهنة، معه ظهر وجه البيسي، فتاة ترتدي بلوفرًا أسود وتحتضن أفرع زهور المشمش.

كان الغلاف مجرد بداية، بعد سنوات كان في حوزة الفتاة أكثر من ألف وسبعمائة اسكتش كانت فيها البطلة بريشة كنعان الذي رسمها بكل الأشكال الفنية التي يعرفها العالم، تشاركا غرفة المكتب في المبنى، وكلما التفتت ناحيته وجدته يعبر عن وجودها بطريقة مختلفة في كل مرة.

كانا يغادران حفل زفاف زميلة لهما في «أخبار اليوم»، قال لها: «نتجوز». كانت عيناها تمتلئان بأسئلة كثيرة تحت عنوان عريض: «ما ينفعش». قال: «سأحطم أي شيء قد يعوقنا»، ثم طلب منها أن تأخذ وقتها وتفكر: «عايزِك

تكوني مقتنعة، أول ما يحصل هتلاقيني جاهز».

٦

كانت الصحف الصباحية مزدحمة بمتابعة قصتين.

كيف يجري العمل في السد العالي بعد أن وضع عبد الناصر حجر أساس المشروع. والطريقة التي ستستقر بها أجهزة التلفزيون في البيوت المصرية بعد أن بدأ رسميًّا بث إرسال التلفزيون العربي.

في العام نفسه، وعلى مساحة سطرين، اقتنص الخبر لنفسه مكانًا.

«تم عقد قران سناء البيسي الصحفية بأخبار اليوم على الرسام منير كنعان وسافرا إلى بور سعيد لقضاء شهر العسل».

لم يحدث أن زارت الفتاة بور سعيد حتى ذلك اليوم. كان الخبر يضع مسافة بين العاشقَين وبين العالم، فضول الأصدقاء ومكالمات المهنئين وزيارات الأقارب، رسالة قصيرة: «إحنا مش موجودين»، فرصة لتأمل الطريق الذي فُتحت بواباته بدون تشويش.

٧

استقرت المحررة الناجحة صاحبة الباب الشهير «قيل وقال» في فيلَّا تطل على أبراج حمام نادي الصيد في المهندسين، في بيت رجل يقول عنه المقربون إنه قلق دائم التساؤل، لا تنقطع عن روحه دهشة الأطفال، يرسم في كل مكان وبكلتا يديه، شهيته للرسم لا تتوقف، يخطط ويقود طوال الوقت ثورات فنية، من الثورة في تصميم الأغلفة إلى فن الكولاج، رجل هوايته جمع ورق الكرتون والعلب الفارغة ليعيد تشكيلها في لوحات، ويعشق التوقف أمام الجدران المتهالكة وتأمل توقيع الزمن عليها، يصدر أحكامه بدقة حادة، ويفيض بصراحة جعلته يعترف لها: «أخاف السعادة عندما تصبح إقامة جبرية، هناك سجون لم تُخلق للفنانين».

بيت تصحو فيه كل يوم على دقات سيمفونيات بيتهوفن المربكة، ورجل يدعوها لمشاركته محبة الموسيقار الأصم، تتحجج بادعاء طنين الأذن لتهرب.

استقرت في صحبة رجل يفيض بالأفكار والخواطر الفنية طوال الوقت، تلف خلفه في المنزل تسجل ما يقول وتتلقى فيض نفسه الذي يعجز عن اختزانه.

لم تكن صحبته سهلة، تقول الفتاة بعد سنوات: «أتدحرج يومًا بعد آخر في مشوار حبي الطويل معه، أصطدم بالحجارة والصخور والمستحيلات، ولا أنتبه إلى آثار الجراح على قدمَي ولا آثار الخدوش في يدَي. كنت أحلم أن يحبني الفنان، الرسام بالذات، فالرسامون هم الأكثر تأججًا بين كل المبدعين،

شهرتهم لا تعنيني بقدر ما يعنيني خروجهم عن المنطق، عن الرتابة، عن السأم. جذبتني إليه الابتسامة الحزينة التي تفضح كالبللور الصافي ما يدور في رأسه. لم يكن يستطيع الكذب، وكنت لا أحاصره لأسأله حتى لا يضطر للكذب أمامي فيغدو طفلًا مذنبًا يتهرب من عقاب أمه».

٨

قدمت الفتاة المتدربة للفنان الكبير ملفًّا يتضمن رسوماتها، كانت متأثرة برسوماته، وحسبت أن هذا سيسعده، تأمل الفنان ما أنجزته ريشة الفتاة ثم ألقاه في سلة القمامة، قال: «لا تقلدي أحدًا. قدِّمي للعالم ما يجعل الآخرين يسعون لتقليدك». كانت النصيحة القاسية دستور عمل ترجمته السنون على مهل إلى منصة صحفية غيرت مفهوم الصحافة النسائية، خرجت بها من حدود جلسات الانتظار في محلات الكوافير إلى ما هو أوسع كثيرًا، «نصف الدنيا لكل الدنيا».

كانت صراحة كنعان وأحكامه التي يصدرها بلا مواراة أو دبلوماسية نموذجًا لما يحتاج إليه من قرر أن تكون الكتابة حياته. كان ناقدًا أبويًّا، يعد لفتاته وقت الكتابة المشروبات الساخنة، ثم يطالع ما كتبته ويخبرها أن هناك ما هو أفضل.

ظل يطاردها متوسلًا الأفضل من قلمها، حتى استيقظت يومًا على «برافو» ثالثة، كانت رسالة أفضل من مر علينا في عالم الكتابة، كتب لها نجيب محفوظ: «هيهات أن أبلغ ذروة البلاغة التي تتمتعين بها».

سألتها كيف كان مطبخ الفتاة الصغيرة، حكت أنها كانت كلما فكرت في أن تتسلل إلى المطبخ كزوجة مصرية تخبز الكيك وتطبخ الطواجن، تجد كنعان على باب المطبخ يقف غاضبًا، يقول لها: «فيه ألف واحد يعملوا لك الكيكة، أو ممكن نجيبها بالتلفون». تقول: «ما خلانيش أطبخ ولا أعمل له فتفوتة حاجة». كانت وجهة نظره واضحة وبسيطة: «إنتِ تقعدي تكتبي أو ترسمي، أو تترسمي بس».

كانت تعيش في صحبة رجل لا يفعل شيئًا سوى أن يدفعها إلى الأمام. قررت أن تقيم معرضًا للوحاتها فسهر هو يبروز اللوحات بنفسه، يفخر أمام الجميع بكل ما تنجزه: «شايفين سناء عاملة إيه؟»، يوجهها دائمًا لتكون شخصية مستقلة بنجاح مستقل. كانت مُلهمته، وكان قارئها الأول.

٩

استقر في يقينها أن طفلًا يحمل اسم كنعان سيكون هدية العمر التي

يستحقها.

حاولت أكثر من مرة، لكن الحمل كان ينفرط لأقل سبب، حتى قال لها الطبيب: «مدام سناء المرَّة دي هننام شوية». سألته: «قل لي قد إيه؟». قال: «شوية»، ولم يفصح. قالت: «لو هانام التسع شهور هانامهم».

ظلت نائمة على ظهرها في فراشها تسعة أشهر، غير مسموح بأي حركة إلى اليمين أو اليسار، مع حقن التثبيت اليومية. يبدي المقربون تعاطفهم معها فتقول: «لو هانام عشر سنين مش مهم، بس أجيب له الطفل اللي نفسه فيه».

وصل هشام منير كنعان، كانا يتأملان فيه الحب وهو يسير على ساقين.

كبر هشام وهو مشغول بأمه وأحلامها وآلامها، وبأعمال والده والتفكير في دفعها إلى صدارة المشهد.

١٠

كان حسني مبارك يحتفل بنجاحه في الاستفتاء على ولايته الرابعة، بينما يُعمق الغموض الحزن على تحطم الطائرة المصرية في المحيط الأطلسي بعد إقلاعها من أحد المطارات الأمريكية بساعة ومصرع جميع ركابها. كان البعض مشغولًا بتشجيع مصر في بطولة كأس العالم لكرة اليد التي أقيمت على أرضها، وآخرون يحتفلون بجائزة جديدة حصل عليها يوسف شاهين من مهرجان «كان».

نهايات ديسمبر، العام ١٩٩٩ يرحل، بينما منير كنعان في المستشفى. أحضروا له بعض الأوراق ليوقع عليها، واكتشف أن اليد التي لم تكن تتوقف عن الرسم طوال اليوم غير قادرة على الإمساك بالقلم، أزعجه ما فسرته له اللحظة، ثم رحل بعدها بيومين.

بعد سنوات قليلة كتبت الفتاة: «كلما خلوت إلى نفسي خلوت إليه».

كانت تفتش عن طريقة تستدعي بها الشريك وفرشاته التي يلوح بها، لم تجد سوى بيتهوفن، باتت نغماته لا تنقطع عن البيت.

١١

رسم الأستاذ هيكل بشراكة مع الأستاذ مصطفى أمين نقطة البداية، لكنهما لم يختفيا مثل عادة قصص الحب الكلاسيكية.

رن تلفون المنزل في الثالثة صباحًا، كان النوم قد طار من عينَي الفتاة بعد ليلة عصيبة. القاهرة تحترق في انتفاضة الخبز، عادت إلى منزلها بينما كنعان مستغرق يرسم ويعمل في مكتبه بـ«أخبار اليوم»، طاردته بالتلفون ليعود إلى

البيت، قال إنه على وشك أن ينهي ما بدأه، وبعد وقت طويل كان يقف أمامها في صالة المنزل وعلى وجهه ابتسامة، سألته عن سبب التأخير، فقال «رجعت مشي». سألته عن السيارة الجديدة التي استلموها قبل ثلاثة أيام، قال: «أخدت الشر وراحت»، احترقت أمام مبنى الأخبار، كان منهمكًا في عمله حتى إنه لم يدرِ بما جرى، سيارة جديدة سحبت جزءًا كبيرًا من المدخرات راح مجانًا، كانت ليلة يتدفق فيها القلق والحزن من كل مكان.

رفعت الفتاة سماعة التلفون لترد على المتصل في ذلك الوقت، كان مصطفى أمين وقال: «الصبح فيه عربية جديدة هتكون قدام بيتكم».

جمعت البيسي لوحات كنعان بعد رحيله، ونظمت معرضًا كبيرًا أفردت له وزارة الثقافة قصور متحف الفن الحديث كاملة، كانت تقف على قدم وساق تستقبل الضيوف وتقود جولاتهم. سجل الزائرون انطباعاتهم، وكتب الأستاذ هيكل:

> **«طوال رحلة استكشاف منير كنعان من جديد، كان معي سؤال واحد: تُرى هل يعرف أن زميلة عمره التي شاركته حياته، واستثارت رؤياه، ورعت إلهامه، كانت واقفة وسط الساحة الفنية العربية ترعى الفن والقيمة وتفتح الباب لذلك الزمان الذي جاء بعد غياب صاحبه».**

لم تكن هناك إجابة واضحة يمكن تقديمها للأستاذ هيكل، لكنني متأكد تمامًا أن منير كنعان كان على يقين أن سناء البيسي ستفعل ذلك، «بأمر الحب».

١

وافق الأستاذ عمار على المقابلة بعد أن أقنعته أنه لن يكون حوارًا صحفيًّا مزعجًا، سين وجيم، ومناهدة ومراجعة، فضول شرير أو حتى طيب، قلت له سأجلس أمامك لأسجل اعترافاتك، سأذكر لك عناوين، مجرد عناوين، وعليك أن تعترف لي بما يروق لك بخصوصها، أعجبته الفكرة.

في الطريق إلى المقابلة كنت أسترجع بيني وبين نفسي أثره في وجداننا كمصريين.

كان الملحن الكبير عبد العظيم عبد الحق بطل أحد المسلسلات التي يلحن عمار أغنياتها، وحضر إلى الاستوديو ليغني، استقبله عمار بحفاوة، وبخجل أن يغني أستاذ لتلميذ، فقال له عبد الحق: «أنا لما باسمع مزيكتك ريقي بيحلو في بُقي»، اختصار غير مخل. منح عمار الموسيقى المصرية حلاوة ما، شكلت جزءًا من تاريخ المصريين الاجتماعي والإنساني.

أثر يبدأ من عند تترات المسلسلات التلفزيونية، وكيف استطاع بشراكة كبار شعراء مصر أن يجعل التتر عملًا فنيًّا مستقلًّا وليس تابعًا للحكاية. تحول التتر على يده إلى مادة للسماع والسلطنة والتأمل، منفذ لتقديم أفكار لا يقوى عليها سوق الكاسيت المشغول بحسبة «ما يطلبه المستمعون»، اخترع عمار منفذًا قدم فيه للمستمعين ما لا يقدرون على ترجمة احتياجهم لطلبه، منفذًا بدأ بالأغاني ثم الموسيقى. بعد أن درَّب عمار آذان المصريين على التعامل مع التأليف الموسيقي، سحبهم بعيدًا عن كسل فني جعل معظمهم يرتاحون إلى وجود مطرب يفسر الألحان في كلمات، وزرع في ذوقهم لياقة الإعجاب بالموسيقى الصافية، في وقت لم يكن هناك من يقدم إليهم هذه الخدمة (كانت «حصة فاضية»، كنا نغني، واقترح أحدهم أن نغني موسيقى مسلسل جمعة الشوان الذي كان يُعرض وقتها، كان اقتراحًا غريبًا بالنسبة إلينا كأطفال أن نغني موسيقى، نجحنا حتى اللحظة التي قرر فيها أحدهم أن يقلد صوت الناي الحزين في واحدة من نقلات اللحن، كان طفلًا صامتًا لا نسمع له حسًّا معظم الوقت، وعندما حانت النقلة وقف منفردًا واكتست ملامحه بالأسى وانحنى بجسده متأثرًا، فانفجرنا في الضحك).

يحكي زميل له في طفولة التعليم أنهم كانوا يذهبون لتحسس جسد عمار عندما يعزف على الأكورديون ليتأكدوا أن هذا النغم خارج من طفل في

سنهم. تعلّق مبكر بالموسيقى لم يفسده أن الطفل مدلل وابن عمدة. وكانت الرغبة في التعلم والإتقان صافية، فبدأ عازفًا في الفرق الشعبية في أفراح الحواري التي كان مسرحها عربات كارو مرصوصة إلى جوار بعضها (يحكي عمار أنهم كانوا يغنون في أحد هذه الأفراح أغنية «عدوية» لمحمد رشدي، وفي مقطع «عدوية أهيه» رد الكورال أول مرة «أهييه أهييه أهييه»، وفي المرة الثانية قال المطرب «عدوية أهيه» فسمعهم يرددون: «يا ساتر يا رب يا ساتر يا رب»، حيث كان عقد المسرح قد انفرط وسرحت كل عربة كارو بمن يقف عليها).

من الحواري إلى الملاهي ثم المسارح خلف كبار المطربين، قطع عمار الطريق بانتظام، في البداية كعازف، ثم امتلك جرأة تقديم نفسه كملحن، بعدها قدم نفسه كمؤلف موسيقي، وبعد أن وضع لمسته على «الوجدان» اختار أن يضع لمسته على «الوعي»، فكانت معجزته الإذاعية «غواص في بحر النغم» (بدأ عام ١٩٨٨)، وهي «شغلانة» من اختراع عمار، أن تعلم الناس كيف يستمعون إلى الأغاني وكيف يكتشفون خبيئاتها.

يعرف أي شخص أن هذه الأغنية جميلة ثم يأتي عمار ليفسر جمالها، ليشرح للواحد لماذا تعجبه. استمع معظمنا إلى الأغنيات التي يحفظها مع عمار وكأنه يستمع إليها للمرَّة الأولى.

عمار الشغوف بمتابعة مباريات كرة القدم يقول: «لو المذيع كويس أشوف الماتش كويس». بهذه النظرية جعلنا عمار نستمع إلى الأغاني «كويس»، حتى عندما بدأ يفضفض أجبرني على أن أكون مستمعًا لبقًا.

٢

سأحذف مداخلاتي، هي أقرب إلى عصا عسكري المرور، مجرد توجيه لدفة الحديث، مداخلات بسيطة لا تقارن بحجم مخرجات جلسة الفضفضة.

قال الأستاذ عمار:

وأنا أتأمل معك خريطة حياتي الآن أكاد ألمس تضاريس تغييرات كثيرة. توقفت عن الاندهاش منذ زمن طويل، كانت جملة موسيقية أو صورة شعرية كفيلة بوضعي في قائمة المجانين. في بداية السبعينيات كنت أمشي في شوارع بيروت أتحدث إلى نفسي، أضحك وأبكي بعد أن استمعت إلى «حبيتك بالصيف»، أغنية جديدة لفيروز، قادتني إلى اليأس بعد أن فشلت في تحديد الفتاة التي تستحق أن أحبها على أنغام تلك الأغنية التي كادت تقتلني.

الآن أستمع إلى أغنيات فيروز مع ابنها «زياد الرحباني» بدهشة أقل، أستمع

إليها كموسيقي يستكشف أفكارًا جديدة في ألحان هذه الأغنيات، ويُعجب بجديدها وجرأتها، لكن بثبات وبدهشة أقل.

أقلعت عن التطرف في مشاعري، كنت أحب جدًّا أو أكره جدًّا، ولا أهادن أو أجامل. بدأت أعترف بالمنطقة الرمادية في علاقتي بتفاصيل عديدة في الكون، وهي منطقة لها اعتبارات مهمة وتصنع قدرًا من التوازن، منطقة تضم ما يُسمى بافتراض حسن النية واختلاق الأعذار للغير.

تغيرت وجهة نظري في الحب تمامًا، كنت أرى أن الحب به قدر كبير من فرض شروط معينة والحفاظ على قدر ما من المصلحة والفائدة، إلى أن علَّمني ابني مراد أن الحب قيمة مطلقة بلا قيود.

كنا في السيارة أنا وهو ووالدته، وكان هو يجلس في المقعد الخلفي، وفوجئت به يمسك وجهي بيديه الصغيرتين فالتفت إليه قائلًا: «فيه إيه؟». فقال: «أنا باحبك أوي يا بابا». هذا الطفل هزمني بالضربة القاضية، قدم لي في جملة واحدة أضعاف ما سأقدمه إليه حتى يصل عمره إلى واحد وعشرين عامًا.

حالة حب طرحت نفسها في ثوانٍ لم أتصورها في حياتي ولم يخطر في بالي أن هذا هو الحب. تغيرت وجهة نظري في فكرة الزواج وتكوين أسرة، أصبحت كائنًا شديد الاستقامة ـ الاستقامة بمعناها الضيق والواسع ـ لم يصبح لديَّ ما أهتم به أكثر من زوجتي وابني ومنزلي والموسيقى.

انحسرت نزعة «الصياد» بداخلي، واخترت الاستقامة بعد عناد قاتل. اخترت حياة جديدة رأيتها طريقة لشكر الله والحفاظ على صفاء علاقتي به، إحساس بيني وبينه خاص جدًّا وددت ألا أجعله يغضب مني، خصوصًا أنه لم يُقدِّر لي ما يغضبني.

وهناك ـ على الرغم من قسوة ضغوط الحياة ـ الثوابت التي لم أتنازل عنها، وعلى رأسها «شرف المهنة»، على مدى ثلاثين عامًا لم أقدم ما أخجل منه أو ما أراه مشينًا لموهبتي.

اعتزلت العزف خلف الراقصات «بمزاجي»، لأنه كان مجرد مرحلة أردت أن أثبت فيها شيئًا وعندما نجحت اعتزلت.

في عام ١٩٧٠، بعد حصولي على الليسانس بأسبوع واحد، نزلت للعمل في إحدى الفرق بكازينو رمسيس في شارع الهرم، وفي يوم قالت إحدى الراقصات: «إنتو جايبين واحد أعمى يرقَّصني!». جرحتني الكلمة، وكنت وقتها

ما زلت «طريًّا»، وقلت لنفسي: وحياتك لأرقص اللي ما يرقص.

وعندما نجحت في هذا التحدي الذي وضعت نفسي فيه لرد اعتباري كفنان، اعتزلت وأغلقت هذه المرحلة تمامًا. وعلى الرغم من مروري بظروف مادية وغيرها تجعلني أقبل العودة، خصوصًا أنني كنت مطلوبًا وقتها وبأجور مرتفعة للعمل في أكثر من مكان، فإنني رأيت أن التجربة كلها كان الهدف منها نفسيًّا وليس ماديًّا، وعندما نجحت اعتزلت.

لم أدر بصري ثانية واحدة عن حقيقة الفن، وقدمت «غواص في بحر النغم» على مدى ثلاثة عشر عامًا، واستكشاف روعة وجمال وموهبة أشخاص غيري، إلى درجة أن أحد الموسيقيين الكبار ـ كنت قد تحدثت عنه في هذا البرنامج عدة مرات وكان معجبًا به ـ اتصل بي قائلًا: «يا عمار أنا عايز أعرف إنت بتستفيد إيه من اللي إنت بتعمله في البرنامج ده». فقلت له استفدت أنك سعيد بهذا البرنامج، وأن «سايس» في أحد شوارع الدقي استوقفني قائلًا: «أنا بابطل أكل عيش عشان أقعد أسمع البرنامج بتاعك».

ظل احترامي للموسيقى وحبي لها هو حب «الهاوي»، لم أتعامل معها كأكل عيش أو «سبوبة». أنفقت ثلاثة أرباع ما كسبته من الموسيقى على الموسيقى، ولو كنت تركت نفسي لمنطق «أكل العيش» لكنت كسبت عشرة أضعاف ما كسبته. وإذا فكرت أن أقدم ما يشبه المطروح في سوق الكاسيت لاستمعت إلى ألف وخمسمائة لحن لي في العام الواحد، لكن كيف أشعر بالرضا، وكيف تواتيني الجرأة على أن أفخر بنفسي أو أن أكون «مبسوطًا» بشغلي؟

مرحلة جديدة ونقلة تشبه النقلات الموسيقية البارعة في لحن طويل ـ هو حياتي ـ زواجي الذي نجحت أم مراد في جعله الحدث الأثير بين أحداث حياتي.

استطاعت أم مراد أن تحترم خطوطي الحمراء وألا تتجاوزها وهي كثيرة.

على رأس هذه الخطوط الحمراء «حريتي»، فأنا لا أحب أن توجه لي أسئلة من أي شخص: «رايح فين؟»، «اتأخرت ليه؟»، إلخ.

احترمت أم مراد حريتي إلى درجة أنني أصبحت أطلعها على خط سيري من تلقاء نفسي. جعلتني أحترمها إلى درجة أنني أطلعها على كل مفاتيح خريطة حركتي وهي في الوقت نفسه لم تجعلني أشعر أنني مضطر إلى ذلك.

هناك أيضًا «عملي»، لم تضع قيودًا على عملي في يوم من الأيام، عدة مرات تشعر أم مراد بقلق تجاه بعض الزميلات، لكنها لم تعبر عنه أبدًا. كنت أميزه بنفسي، وأخذنا فترة من الوقت حتى تجاوزت هي هذا القلق الذي لم تطرحه على طاولة حياتنا لحكمة منها، واحترمت قلقها وحكمتها لثقتي في تفهمها لعدم صحة فرض قيود على عمل الفنان.

وهناك أيضًا «حياتي الخاصة مع أصدقائي»، فأنا عشت ثلاثة وأربعين عامًا قبل الزواج بين أصدقائي، وكانوا نواة حياتي، ولي معهم تفاصيل مشتركة أحبها. أحب كل فترة أسهر «سهرة رجالي». معهم نتحدث ونتذكر مواقف وأشخاصًا وأحداثًا وسخافات وكوميديا. استطاعت أم مراد أن تتفهم هذه المساحة وألا تتدخل فيها أبدًا، وإذا صادف وجلست معنا قليلًا وشعرت أن الحوار الدائر بدأ يبتعد عن منطقتها تستأذن وتتركنا.

كنت أعرف زوجتي كصديقة لمدة ثلاث سنوات قبل الزواج، لكنني بعد شهر واحد من تعرفي إليها شعرت أن «الست دي ممكن أتجوزها»، وأنها تصلح للزواج بعد أن اطمأننت إليها وشعرت أنها تشبهني وأنها قد كبرت بين أفراد عائلتي، تشبه أختي وبنت عمي، وأنها الشخص الذي تستطيع حسب النص القرآني أن «تسكن إليه»، أن تشعر معه بالسكينة والهدوء والاطمئنان، ولا يساورك القلق على ابنك وعرضك ومالك معه. لكن فكرة الزواج نفسها وقيود الزوجية والحرية والتخلص من حياة سابقة بتفاصيلها، كل هذا تحول إلى هواجس مشتعلة بداخلي، ظللت أقاوم ثلاث سنوات وهي صامتة ولا تتحدث في هذا الموضوع وكأن شعارها: «أنا سايباك لوحدك.. هتقع.. هتقع».

لم تشعرني أن وجودها في حياتي فرض. في بداية زواجنا قالت لي: «لا أريد منك شيئًا، بالكثير نخرج مرة كل أسبوع»، وحافظت على هذا الاتفاق لمدة خمسة أسابيع، ثم صرنا نخرج مرة كل شهر، ثم مرة كل فترة، ثم توقفنا، والآن تصبح سعادتها مضاعفة عندما أقول لها: «يلَّا نخرج»، لأن هذا يعني أني أريد أن أفعل ذلك دون اتفاق سابق أو شرط أو وعد أقوم بتنفيذه. أصبحت الحياة تسير بيننا بالاتفاق الشعوري وليس بالاتفاق المجدول.

لا مانع بالطبع من الخلافات والخناقات. أكبر خناقة بيننا كان منبعها سوء تفاهم. زوجتي من النوع الصريح الذي لا يتردد في نقد ما لا تحبه بصراحة ووضوح، وفي إحدى المرات وجهت سهام نقدها إلى صديق مشترك، ورأيت من وجهة نظري أن نقدها كان حادًّا وجارحًا. لم يغضب هذا الصديق من

كلمات زوجتي، إنما أنا الذي غضبت بشدة. الطريف أن هذا الصديق هو الذي صالحنا بعد الخصام.

بيني وبين زوجتي تراكمت ـ بمرور الوقت ـ تفاصيل الأحداث والأحزان والأفراح المشتركة إلى أن أصبحت حقيقة جميلة تجري في دمي.

لم أتعرض لنقد يجعلني أعيد حساباتي، لكنني تعرضت «للشتيمة» كثيرًا، وفي الوقت نفسه أنا من أكثر الناس الذين استمعوا إلى كلمات إطراء تفوق ـ في بعض الأحيان ـ أعمالهم.

قال لي الموسيقار محمد عبد الوهاب: «اسمع يا ابني، أنا عمري ما قلت لحد أنا وإنت روح واحدة في جسدين إلا ليك إنت، وإنت بختك كويس لأنك جاي تكمل، وأنا ماشي وإنت هتكمل». فقلت له: «تمشي فين يا أستاذ. يا رب تدفنَّا كلنا». فقال لي: «يا ابني دي لحظة صدق. اسمعها مني، أنا ما باحبش أقولها تاني»، ثم أردف قائلًا: «أنا عايزك تمسك في سكتك، إوعى حاجة تخليك تبطل مزيكا».

وفي سنة قدمت مع سيد حجاب أغنية وطنية اسمها «جينا زي الريح الحرة»، أغنية تعبت فيها وكنت أراها جديدة وقوية، لكن هذه الأغنية توارت خلف توفيق الله لأغنية جمال سلامة والأبنودي: «إن كان ع القلب»، ولم تمنح هذه الأغنية فرصة لأغنيتي لتظهر جيدًا، فأصبت بالإحباط وقررت أن أعتزل الموسيقى نهائيًّا.

وبعد أيام فوجئت بالموسيقار كمال الطويل يزورني في منزلي بعد أن أخبره أحد أصدقائي بخبر اعتزالي، وقال لي: «قبل أي حاجة، لو عايز تبطل مزيكا اتفضل، المزيكا ما تبكيش على حد. لو إنت لسه بتفرح بالمزيكا كمل، لو معندكش جديد اعتزل». فقلت له: «لسه بافرح بالمزيكا». فقال: «طيب، سمعني أغنية». وبعد أن استمع إليها قال لي: «يا ابني، الغنوة دي لا جيلك ولا الجيل اللي قبلك ولا جيل عبد الوهاب، عملوا واحدة زيها».

في المقابل كتبت صحفية معروفة مقالًا لم تترك شيئًا يخصني إلا وسبَّته، وقالت عن برنامجي إنه «غواص في بحر الزفارة»، و«غواص في بحر الفتة والكباب»، وسبَّت ألحاني وموسيقاي وموهبتي، إلخ. وكتب عني صحفي آخر قائلًا إنني أفسدت الموسيقى العربية. وكتب ثالث فيما معناه أنني لا أؤتمن على بيوت أصدقائي التي أدخلها!

في مدارس المكفوفين من الطبيعي أن تجد ٣٪ من أبنائها ينتمون إلى

الطبقة المتوسطة والثرية، والباقون يعيشون فوق أو تحت خط الفقر. هؤلاء الزملاء عشت بينهم ودخلت منازلهم من البدروم إلى غرفة فوق السطح، تعايشت مع أصدقائي الفقراء المعدمين بأحلامهم وآلامهم وطموحاتهم، وتعلمت منهم العناد والصلابة والقوة والقدرة على تحويل المعاناة إلى مادة للسخرية. وفي الوقت نفسه أخذت من عائلتي، وهي ليست العائلة الإقطاعية التي تعيش بمعزل عن البسطاء والفقراء، لكنها تذوب بينهم، الكرامة والاعتزاز بالنفس والأصل الطيب.

لذلك لم تكن النقلة (من بيت العائلة إلى شقة في حارة متفرعة من شارع سد في الدقي) قاتلة أو معطلة. كنت مستعدًّا لها، وللأمانة كان داخلي باب عبارة عن باعث للاطمئنان وهو إن فشلت في القاهرة سأعود إلى بيت أهلي. حقيقي أنني لم أستخدم هذا الباب ولم أقربه لكنه منحني بعض الثقة.

عندما دخلت الوسط الموسيقي بدأته من خلف خط البداية، في حارة سد، كنت «أشكك» من عم فؤاد البقال بالستة أشهر، وكنت أستهلك كميات شاي وقهوة من مقهى أحمد عيسى وأحاسبه كل شهرين، وكان طعامي من مطعم المغربل بالراتب الشهري. اتفق معي محمد المغربل صاحب المطعم على أن أعطيه مائة وخمسين قرشًا شهريًّا مقابل وجبتَي الغداء والعشاء.

ومرت عليَّ أيام صعبة، أذكر أسبوعًا أطلقت عليه أنا وأصدقائي «أسبوع التعريفة»، أسبوع كامل قضيته بتعريفة، لم أصرفها ولم يأتِ غيرها. كنت أزوغ أنا وصديقي من الكمسري وننزل في أي محطة عندما يقترب، كنا نستقل أربعة أتوبيسات في مسافة صغيرة هروبًا من الكمسارية.

وفي يوم لم يكن معي أي نقود، مشيت من الحدائق إلى الظاهر إلى الزيتون على قدمَي... لكنني كنت مؤهلًا للاصطدام بهذه الحياة.

فترة كانت غريبة جدًّا، لم أكن باقيًا على شيء، لم أهتم سوى بالإمساك بخيط البداية، دخلت المهنة وكنت سعيدًا أنني أنجح فيها بذراعي، لم يكن لديَّ واسطة.

أذكر أن أحد أعمامي كان يعرف أم كلثوم شخصيًّا عن طريق النادي الأهلي وأفراح العائلة، قال لي في يوم: «لو إنت مُصر تشتغل في الهم ده، أنا ممكن أشغلك مع أم كلثوم». فقلت له: «أنا عايز أشتغل معاها بس هي اللي تختارني». لذلك أعتبر عدم العمل مع أم كلثوم أحد أهم إحباطات حياتي، لأنها طلبتني للعمل لكن الظروف وقفت حائلًا أمام العزف خلفها.

كان مجدي الحسيني هو الذي يعزف على الأورج خلف أم كلثوم، ثم حدثت ظروف جعلته يترك الفرقة، فرشحني الحفناوي للعمل مع أم كلثوم، وقال لها: «ابن علي الشريعي عازف أورج ممتاز». فقالت: «أشوفه». واتصل بي الحفناوي ليبشرني بالخبر وقال لي: «بكرة ميعادك في بيت الشيخ عيد الصباح الثامنة مساء علشان البروفة».

في هذا الوقت كنت أعزف خلف الراقصة زيزي مصطفى، وكان الأورج وقتها بدعة جديدة في فرق الراقصات، وكان أجري خمسة جنيهات في الفقرة، بعد أن كان جنيهًا واحدًا أيام الأكورديون. وكان عندي بروفة مع زيزي مصطفى في نفس ميعاد بروفة أم كلثوم، فذهبت إلى زيزي في كازينو رمسيس الهرم لأعتذر لها، فقد كانت طيبة جدًّا وبنت بلد، نزلت من التاكسي وكان به الأورج وطلبت منه أن ينتظرني، دخلت وقابلت زيزي مصطفى واعتذرت لها، وفوجئت بها تصعد إلى خشبة المسرح وتمسك بالميكروفون وهي تقول: «أستاذ عمار جاله ميعاد مع الست أم كلثوم، حيوه يا حبايب». وأصرَّت أن أتعشى احتفالًا بهذه المناسبة. تناولت عشائي وفرحت بفرحة زيزي مصطفى وخرجت لأجد التاكسي قد أخذ الأورج وانصرف!

وكانت ليلة سوداء، أولًا كان الأورج ملكًا للموسيقار بليغ حمدي وأعطاه لي «علشان آكل عليه عيش»، وللمرة الأولى في حياتي أسأل صاحب الملهى عن رقم التاكسي أثناء دخولي، لا أعرف لماذا فعلت هذا، ولا أعرف كيف حفظت الرقم، وقدمت بلاغًا في قسم الشرطة، وذهبت إلى أم كلثوم في اليوم التالي، ورويت لها ما حدث، فأخذت رقم المحضر واتصلت بممدوح سالم وزير الداخلية وقتها، واستطاعت الشرطة أن تعيد لي الأورج، لكن بعد فوات الأوان، وبعد ضياع فرصة التعامل مع أم كلثوم لأسباب خارجة عن إرادتي.

أول أجر حصلت عليه كهاوٍ كان ٩٩ قرشًا من الإذاعة المصرية. كنت أعزف في أغنية محو الأمية الشهيرة: «يا أهل بلدي في كل مكان»، تلحين عبد العظيم عويضة وتوزيع علاء الدين مصطفى الذي أخذني من الجامعة لأعزف معهم في أواخر عام ١٩٦٦.

أما أول أجر حصلت عليه كمحترف فكان في كازينو الأندلس مع فرقة محمد عبد المطلب. كنت أعزف خلفه وأحصل على جنيه في الليلة، وبعد الضريبة أحصل على ٩٠ قرشًا. الطريف أنني عندما بدأت أتعامل مع مصلحة

الضرائب سألتهم عن الضرائب التي كنت أدفعها أو كانت تُستقطع مني في هذه الفترة فقالوا لي: «ولا كنا نعرفك».

آخر أجر وصلت إليه مع التلفزيون المصري كان ٣٦٠٠ جنيه في دقيقة الموسيقى الواحدة. الطريف أن الناس تقول إنه أعلى أجر وصل إليه موسيقي في مصر، وإنه أعلى من أجر الموسيقار عبد الوهاب، وأنا هنا أحب أن أفند هذا المبلغ. إذا افترضنا أن الموسيقى مدتها ثلاث دقائق فسأحصل على ١١ ألف جنيه، هناك ضريبة ١٥٪ ونقابة ٢٪ ودمغات ٥٪، وأجر الموسيقي الواحد يتراوح بين ٢٥٠-٤٠٠ جنيه، وفرد الكورال الواحد أجره ١٥٠ جنيهًا، وساعة الاستوديو ٢٠٠ جنيه، وكتابة النوتة ١٠٠ جنيه في الورقة الواحدة، أي أن ما تبقى لي من أجر الدقيقة يتراوح بين ٥٠٠-١٠٠٠ جنيه فقط.

وأول لحن لم أتقاضَ عنه مليمًا واحدًا هو «امسكوا الخشب»، وغنته مها صبري التي كنت أعزف خلفها، وفي ليلة كانت الفرقة سهرانة في منزلها، وقالت لي: «اعزف على العود شوية»، خد ده عود بليغ حمدي. وبعد قليل غنيت لها هذا اللحن فسألتني عن صاحبه، فقلت لها: «لحني». فسألتني إن كنت قد بعته لمطرب فأجبت بالنفي، فقالت لي: «سأغنيه». وغنته وحقق نجاحًا قويًّا. نجح اللحن ونجحت معه، لكنني لم أعمل بعده لمدة أربع سنوات، لم تكن هناك فرصة، وكانت الحكاية تحتاج إلى نوع من المساندة أو الواسطة. ضاع مني وقت كثير لأنني كنت أعمل بمفردي.

ولمدة أربعة أعوام ظللت أقدم موسيقى للدراما فقط، إلى أن أخذت مني شادية «أقوى من الزمان»، بعدها عملت مع عفاف راضي، ثم جهزت عدة أغنيات قصيرة لوردة عام ١٩٨٠ لكنها لم تنفذ، ثم كانت تجربة الأصدقاء، وكنت وقتها أوازن بين المؤلف الموسيقي والملحن إلى أن انحسر الأخير لصالح الأول.

عيب رئيسي في تركيبتي أنني لا أجيد التخطيط، كما لا أجيد الدعاية لعملي، والتخطيط والدعاية تحديدًا كانا سيصبحان فارقين معي لو امتلكتهما منذ البداية.

لو كنت أجيد التخطيط لكنت قد وازنت بين الدراما والتلحين، بين ما أحب أن أفعل وما ينبغي أن أفعل، لكنني استسلمت لما أحب واستغرقني التأليف الموسيقي.

إهمالي لفكرة التخطيط جعلني أجد نفسي كثيرًا في الشارع بعد أن طُردت

من فرق موسيقية كثيرة، وعطّل تنفيذ أعمال كثيرة. هناك تجربة غنائية لي مع سيد حجاب وعلي الحجار عمرها واحد وعشرون عامًا اسمها «هنا القاهرة»، لم تنفذ حتى الآن.

لكن في المقابل اختياراتي الفنية غالبًا ما تكون جيدة، بمعنى إذا حسبت الفشل في حياتي المهنية فستجده لن يتجاوز ١٠٪، وهذه النسبة مع أنها فشلت جماهيريًّا إلا أنها على الأقل جيدة فنيًّا.

كما أنني لا أجيد الدعاية لعملي ونفسي، خجلت من ترويج خبر الجائزة العالمية التي حصلت عليها في إسبانيا عن الموسيقى التصويرية لفيلم «البريء»، ووسام السلطان قابوس الذي لم يحصل عليه غير الموسيقار محمد عبد الوهاب، وجملة عبد الوهاب التي قالها لي ولم أطنطن وأتاجر بها، وتذكرتها معك اليوم في سياق حوارنا.

٣

لم تكن كل الاعترافات صالحة للنشر، كتبت ورجعت للأستاذ عمار لمراجعة ما قاله قبل النشر، أدهشتني قدرته على تذكر أدق التفاصيل بما فيها تعليقاتي السريعة على بعض الحكايات، وأحببت حسن تقديره للمكتوب، حسه البلاغي، تعليقه مثلًا على صياغة ما لأحد الاعترافات قد تسفر عن سوء فهم بسبب حرف جر أو التعريف بـ«ال».

ولد عمار محرومًا من نعمة البصر، لكنه يمتلئ من «ساسه لراسه» ببصيرة مُلغزة.

يحيِّر من يعيشون إلى جواره، مهندسو الصوت يشكون في أن هذا الشخص الجالس أمامهم يدير ميكسر الصوت ذا الثلاثمائة زر كفيف، أصدقاؤه فهيمة الكرة لا يصدقون كيف توقع صديقهم أن تنتهي هذه الهجمة بهدف، طفله ذو السنوات الخمس يطرق الباب كل قليل ويسأل عمار مين، فينتحل الطفل شخصية السواق أو الطباخ، يندهش أحد الأصدقاء الموجودين فيشرح له عمار الأمر: «قالوا له أبوه كفيف ومش مصدق وبيتأكد بنفسه».

استخرج عمار من الظلام معجزته الشخصية، ربما ساعده الظلام على أن يدقق النظر إلى ما هو أعمق، فوجد هناك ألفة وهدايا شخصية كان يوزعها على الجميع حتى آخر لحظة، عرضوا عليه أن يجرب عملية جراحية في أمريكا تعيد إليه البصر فرفض، قال: «أنا لو فتَّحت أتجنن».

التقيت ميادة الحناوي في أول زيارة لمصر بعد أن طرق أحدهم باب شقتها فجرًا في الثمانينيات طالبًا منها أن تجمع حاجياتها وتغادر القاهرة فورًا. سألتها عن السبب، قالت: «كانت أوامر عليا». وتردد وقتها أن زوجة موسيقار كبير كانت وراء قرار طردها من مصر غيرة على الزوج. رحلت لكن صوتها ظل حاضرًا بقوة طوال فترة غيابها.

في منتصف الثمانينيات عاد قريب لي من القاهرة بشريط كاسيت مكتوب عليه «الحب اللي كان»، وكانت الألفة وقتها غائبة بيني وبين هذا النوع من الغناء الذي ينتمي إلى الكلاسيكيات، لكن الأغنية دارت مرة واحدة أمامي وتغير بعدها كل شيء.

احتلت ميادة مكانة فريدة في وقت كان الكبار فيه يغيرون جلودهم، كان معظمهم يهربون من الأغنيات الطويلة بحثًا عما يناسب جيلًا جديدًا وذوقًا يتغير، جددت نجاة الصغيرة مكانتها بـ«أنا باعشق البحر»، وفعلت فايزة أحمد الأمر نفسه بـ«على وش القمر»، وقف محرم فؤاد مع فرقة شبابية يغني «لو كان الأمر أمري»، تسلل بليغ حمدي بصوت ميادة إلى الملاعب التي صارت خالية نسبيًّا، وسدد ضربات ضربة تلو الأخرى، «الحب اللي كان» ثم «أنا باعشقك» و«فاتت سنة»، نجاح أغرى الباقين بالعودة إلى الملعب نفسه.

يعرف أهل التلحين أن ألحان بليغ لميادة تحديدًا ملهمة، يحوم كثيرون حولها في محاولة لاستنساخ مشاعرها، وفك شفرة شديدة التعقيد من فرط بساطتها وعاديتها، شراكة موسيقية شديدة الغرابة، جدد بليغ من خلالها تقديم ما أدهش الناس، اعتقد كثيرون أنه استنفد ما يمتلكه من موسيقى في تجاربه مع أم كلثوم ثم وردة الجزائرية ثم عفاف راضي، لكنه فاجأ الجميع بما قدمه مع ميادة.

قدمت ميادة بعد رحيل بليغ تجارب كثيرة نجح بعضها، وكان حظ البعض الآخر قليلًا، لكن من بين كل ما قدمته استقرت «الحب اللي كان» تحديدًا في الوجدان الشعبي، أغنية تحتفظ بمكانة ذات خصوصية عصية على التفسير، ولا أحد يمتلك مفتاحًا لفك شفرة سحر غريب يلفها.

قال البعض ربما لأنها كانت وجبة متكاملة، عصر بليغ بداخلها بعضًا من نفسه فكتب كلماتها ولحَّنها ووزعها، وقال البعض ربما لأنها تعبر عن تجربة شخصية لبليغ فخرجت معبأة بصدق تصل ذبذباته إلى القلب قبل الآذان، وقال البعض

إنها بكارة صوت تفانى في تقديم نفسه لأول مرة بإخلاص وشغف يفيض بالجدية والالتزام، تفسيرات كثيرة شهدت بنفسي جلسات لبشر من مختلف الأطياف تحوم حولها، من عمال تشطيب في إحدى الشقق التي سكنت فيها، إلى جلسة ملحن كبير مع بعض العازفين، مراهقين وربات بيوت، في طفولتي وقبل أسابيع.

كانت ميادة الحناوي تقف في استوديو عمار الشريعي تسجل أغنية جديدة عقب عودتها إلى مصر، وكنت أراقبها من خلف الزجاج حتى خرجت في استراحة، سألتها إن كانت تعرف قيمة «الحب اللي كان»، ابتسمت وبدا عليها تأثر هربت هي منه بتغيير الموضوع، استجبت للتغيير، لكنها ظلت شاردة حتى عادت إلى الوقوف أمام الميكروفون مرة أخرى.

عندما خرجت من الاستوديو وضعت نفسي في تاكسي عائدًا إلى المنزل، خفض سائق التاكسي صوت الكاسيت ليسمع وجهتي، وما إن جلست حتى رفع الصوت وكانت «الحب اللي كان» في منتصفها. كانت الصدفة مربكة، أقوى من قدرة الواحد على أن يتعامل معها، وتذكرت شرود ميادة وهي تهرب من السيرة.

١

مع نهاية التسعينيات كان الوسط الثقافي دائرة شبه مغلقة، حتى إن الكاتب قد يستطيع معرفة من قرأوا إصداره بالاسم، وجوه مألوفة يسهل تمييز الوافدين عليها، على حوافها يوجد محبو القراءة وأصحاب وجهات النظر الذوقية النقدية، ضيوف ثابتون على التجمعات والندوات ولقاءات المناقشة.

ثم حدث أن صادفت يومًا ما في عربة المترو شخصًا لا أعرفه يحمل نسخة من رواية مترجمة إصدار دار الهلال، يقرأ كمثقف حقيقي مهتم تضج ملامح وجهه بالإثارة.

وجه غير مألوف يحمل كتابًا بعيدًا عن الأماكن التي خصصتها الصدفة والتراكم لمثل هذه الأنشطة، حدث يقول إن هناك بداية جديدة لشكل المسألة، الدائرة تتسع وثمة تغيير في الطريق.

كانت رواية «ساحر الصحراء» تأليف باولو كويلو وترجمة بهاء طاهر.

٢

لا أعتبر نفسي من عشاق الترجمة أو محترفيها، أجيد لغة أجنبية أتابع بها قدر استطاعتي ما تيسر من إنتاج العالم في كل ما يتعلق بالكتابة، حتى اللحظة التي وجدتني أجلس فيها أمام الكاتب البرازيلي «باولو كويلو»(*) في غرفته الواسعة جدًّا الخالية تمامًا من كل شيء ما عدا مكتبًا صغيرًا إلى جوار نافذة كبيرة تطل على المحيط الأطلنطي ومقعدين ومكتبة بعرض الحائط. كنت قبل وصولي إلى البرازيل في آخر شهور التسعينيات ضمن بعثة «نصف الدنيا» الصحفية أفكر في عمل عدة حوارات صحفية في مقدمتها حوار مع اللاعب الشهير وقتها روماريو، لم يكن أهم أبناء جيله لكنه كان النجم الوحيد الذي لم يغادر البرازيل ليلعب خارجها، وحوار آخر مع باولو كويلو الكاتب الأكثر مبيعًا، طلب روماريو خمسة آلاف دولار في حوار لا يزيد على عشر دقائق، أما كويلو فقد أخبر سكرتير السفارة المصرية الذي اتصل به أنه موجود كل يوم في البيت من التاسعة صباحًا حتى غروب الشمس لمدة ثلاثة أسابيع قادمة.

أجريت الحوار وانصرفت، لكن ظلت روحه تطاردني من ريو دي جانيرو إلى القاهرة ثم استقرت في أحد أركان غرفتي، كانت تحثني دومًا على ترجمة رواية «بالقرب من نهر بيدرا»، وإتاحة فرصة قراءتها لآخرين قد يكون ما

يقوله كويلو فارقًا في حياتهم.

«بالقرب من نهر بيدرا.. جلست وبكيت» كتب لي كويلو على صفحتها الأولى بخط يده إهداء قال فيه:

«لتكن محاربًا من أجل النور».

قلت له: «سأترجم هذه الرواية فور عودتي إلى القاهرة»، قلتها بحماس رومانسي وانفعال عاطفي، فابتسم وقال: «إنها أغلى بناتي، وأعتقد أنها رواية ممسوسة، فأنا شديد الحساسية تجاه الأعمال التي تخرج مني مسكونة بأرواح أبطالها، هذه واحدة منهم». ثم سألني: «كم من الوقت ستحتاجه لإنهاء ترجمتها؟»، قلت له: «لا أعتقد أنها ستحتاج إلى وقت طويل»، فصمت وفي عينيه ابتسامة مربكة.

احتجت إلى ما يقرب من ثلاث سنوات لترجمة هذه الابتسامة.

كنت قد اشتريت النسخة الإنجليزية من بيروت في منتصف عام ١٩٩٨، لم يرد في ذهني للحظة أن ألتقي كاتبها وجهًا لوجه، ثم مرت بعدها ثلاث سنوات وأنا أؤجل في كل يوم إنهاء الترجمة إلى يوم آخر.

ثلاث سنوات وأنا آخذ من رواية كويلو في كل صباح ما يلزمني كمادة للحوار مع أصدقائي المثقفين، باولو كويلو قال، باولو كويلو شرح، هذه النقطة توقف عندها كويلو، وهكذا، يسألني الأصدقاء متى سأنتهي من ترجمة هذا العمل الذي يبدو أنه ملهم، كنت أقول مسألة وقت، ثم سرت شائعات عن كون هذه الترجمة (التي كتبت في كتابين أصدرتهما أنها تحت الطبع) مجرد مشروع وهمي.

قال لي كويلو إن النجمة إيزابيل إدجاني قد اشترت هذه الرواية لتحويلها إلى فيلم سينمائي، ثم كشف لي سرًّا صغيرًا، قال: «اشترطت موافقتي على السيناريو قبل الأجر، فأنا لن أسمح لها بتشويهها. وكل السيناريوهات التي أرسلوها لي لم تعجبني»، كان هذا عام ١٩٩٩.

على مدى ثلاث سنوات كنت أتابع الأخبار، يطمئنني عدم خروج الفيلم إلى النور، أصبر نفسي قائلًا إنني لست أفضل حالًا من إيزابيل إدجاني وفريق عملها.

أترجم سطورًا قليلة ثم أتوقف أمامها، يشغلني المعنى الذي اكتشفته، كانت الرواية هي التي تترجم لي أفكارًا تشغلني، تشرح وتفسر وتفتح الباب للتحليق بعيدًا.

إلى أن استيقظت يومًا على هاتف من أحد أصدقائي يعرض عليَّ رفقة

السفر إلى مدينة دهب.

بينما أجهز حقيبتي لمحت ظرفًا أبيض يعلوه التراب، كانت محتوياته مألوفة، الرواية وقلم فلوماستر وخمس ورقات بها ترجمة للمقدمة والفصل الأول.

عادة أهرب من اصطحاب ما يذكرني بمسؤولياتي عند السفر، لكن الظرف استقر في الحقيبة بدون تردد.

٣

في دهب كنت أواجه الشخص الذي أخطط للتخلص منه.

الكسول العدمي الساخر الكئيب، فاقد الشغف المفلس، المغرم بقصص الحب المؤذية، المقصر مع أهله الذين تفادوا إزعاجه بالشكوى وتأقلموا مع غيابه بالصمت.

كنت بحاجة إلى خطة ونقطة بداية وحافز.

وقفت أتأمل الجبال، ألهمتني البداية، عرفت ما لا يجب أن أفعله لكن الغموض كان يكتنف ما يجب فعله.

عدت إلى الشاطئ فوجدت صديقي أمام البحر يقلب أوراق الرواية ثم نظر إليَّ قائلًا: «إنت مش هترجم الرواية دي بقى؟»، اعتبرت نظرة صديقي المتهكمة حافزًا، وبدأت البحث عن خطة.

٤

اعتذرت عن أعمال من النوع الذي يحقق أموالًا سهلة منزوعة القيمة.

ثم فكرت أن فك العكوسات التي تعطل هذا المشروع يحتاج إلى «عتبة جديدة».

استعرت حجرة في مكتب صديق محامٍ، كانت فارغة إلا من بعض الكراكيب، طلبت منه أن يعيرني ترابيزة وكرسيًّا، ثم تفرغت للترجمة.

جاءت اللحظة التي تحتم فيها عليَّ أن أعيد صياغة وجهة نظر كويلو بلغتي الخاصة وبخط يدي ـ ويا لها من لعنة ـ أيام وأنا أشعر بروح كويلو جاثمة فوق كتفَي وأنا أبني جسرًا بينها وبين أرواح جديدة عليها، أرواح ستقرأ ما كتبه بالعربية.

كانت روحه المضطربة الهائمة في غرفتي توقظني من نومي كل نصف ساعة لأعيد صياغة ما سبق أن كتبته، وكثر تناولي للمهدئات بكل أنواعها، وشعرت للمرة الأولى بالخوف.

توقفت أكثر من مرة عند فصل بعينه، كان عصيًّا ومرهقًا، اتصلت بصديق يعمل مترجمًا في إحدى شركات توزيع أفلام الفيديو الأجنبية، قلت له: «أريد

منك ترجمة حرفية لهذا الفصل، ساعدني في فك شفرة معانيه وسأقوم بإعادة صياغته»، تفاوضنا على الأجر، كان كريمًا، أنهى عمله في اليوم التالي، كنت على مسافة خطوات من النهاية، اتصل بي صديقي صاحب المكتب وأخبرني أنه مضطر لتسليمه إلى مالكه الأصلي ليزوج ابنه فيه.

في الطريق إلى شقتي كنت منتشيًا بنجاح ما لم يكتمل، سعيدًا بقدرتي على الهروب من الاستسلام. كان هناك فصل في الرواية يتحدث عن الآخر الكامن في أحد أركان حياة كلٍّ منا ويكاد أن يفسدها، رأيت في الرواية ما هو أهم من عمل أترجمه وكنت ممتنًّا للهدية.

عدت إلى العمل، وذات ليلة فوجئت أن المتبقي في الرواية هو السطر الأخير، كان محتواه يقول: «تمنحنا السماء فرصة أخرى للحياة، جهز أغراضك فالأحلام تعني العمل الشاق». كان سطرًا يخاطبني أنا شخصيًّا في هذه الليلة الباردة من شتاء ٢٠٠٢، استرجعت علاقتي بالرواية لأفهم أنه سطر يجب أن أؤمن به قبل أن أعيد صياغته، قلت لنفسي: هذه رسالة. فكرت قليلًا ثم قلت: لا، هذه مبالغة.

أنهيت الترجمة وجلست لأقرأ ما كتبته، في منتصف الرواية شعرت أن كويلو إلى جواري جالسًا يدقق في صمت. خفت مجددًا، أغمضت عينَي فرأيته، كان مبتسمًا بسيطًا كعادته. في اليوم التالي سلمت الترجمة للناشر وعدت إلى قواعدي سالمًا.

٥

يوم وصلت النسخ من المطبعة إلى «دار ميريت» حملت واحدة إلى صديقي مترجم الأفلام مطبوعًا في نهايتها اسمه مقرونًا بالشكر لمجهوده، وواحدة إلى صديقي صاحب المكتب، طرقت باب شقته، كان يحتفل بعيد ميلاد ابنته، فدخلت الشقة أرقص على صوت عامر منيب «وياك وياك ومعاك على طول»، حاملًا النسخة فوق رأسي كشمعدان الراقصات، ثم حملت ما تبقى معي من نسخ إلى محطة الجيزة وسافرت إلى سوهاج وتركت لأمي حرية توزيعها على الأحباب، ولمحت في عينيها أنه «اعتذار مقبول».

كان استقبال المهتمين للترجمة مبهجًا، سمعت وقرأت ما منحني رصيد ثقة يكفي للانطلاق مجددًا. نفدت الطبعة الأولى، وبينما يستعد الناشر محمد هاشم للطبعة الثانية أخبرني أن هناك ناشرًا لبنانيًّا اشترى حقوق ترجمة أعمال كويلو إلى العربية حصريًّا، ولم يعد من حقنا أن نطبعها مجددًا. أسعدني ثبوت الرؤية، تأكدت أنها رسالة شخصية، وصلت بنجاح، كان الناشر يراها

نهاية محبطة للمشروع، وكانت من وجهة نظري نهاية موغلة في الإلهام.

كان كويلو فرحًا بأن صحفيين وكُتابًا مصريين يزورونه في بيته في الجانب الآخر من العالم، انفتحت شهيته للحكي والقهوة والدخان:

«نشأت في عائلة متوسطة المستوى، كانت تحلم بأن يدرس أكبر أبنائها الهندسة، لكن كان لديَّ الحلم منذ الصغر بأن أصبح كاتبًا، لكن عندما صارحت أمي برغبتي في احتراف الكتابة قالت لي إن احتراف هذه المهنة يلزمه شروط صعبة للغاية ومواصفات خاصة لا تتوافر فيَّ، وبالتالي فإنني إذا أصبحت كاتبًا فسأكون كاتبًا فاشلًا.

التحقت بمدرسة الحقوق في منتصف الستينيات، وبدأت أهتم بالسفر والترحال داخل وخارج البرازيل، وبدأت أهتم بمقابلة الناس في كل مكان، وقد اخترت السفر بالوسائل الرخيصة لما فيها من خبرة نتيجة الاحتكاك بأنماط بشرية متنوعة.

عدت إلى البرازيل مع بداية السبعينيات، وبدأت أفكر في احتراف ما أحبه (الفن والكتابة)، فعملت في إحدى الصحف البرازيلية، ثم تعرفت إلى مطرب ومنتج فني، وبدأت أكتب أغاني، وحققت أول أغنية كتبتها جماهيرية هائلة، لكن الحكومة اعتبرت الأغنية مخالفة للنظام وتحض على الثورة، وبناء عليه أُلقي القبض عليَّ وأُودعت السجن أكثر من مرة.

عندما خرجت من السجن بعد المرة الثالثة قلت يكفي هذا القدر من الجنون، لقد مارست كل أنواع الجنون التي يستطيع الإنسان أن يمارسها طوال حياته، مارست كل ما هو مسموح وممنوع في فترة عمرية قصيرة جدًّا.

قررت أن أصبح إنسانًا عاديًّا. بحثت عن وظيفة، والتحقت في البداية بالعمل في شركة «بولي جرام» (أكبر شركات الكاسيت في البرازيل).

طوال هذه الفترة لم يفارقني حلمي القديم بامتهان الكتابة، لكن لأنني كنت أحب أمي بشدة كنت أتخلص من هواجس هذا الحلم كلما راودني لأنها كانت مقتنعة بأنني سأصبح كاتبًا فاشلًا!

لكن بدون مقدمات قررت أن أمنح حلمي القديم فرصة أخرى.

قبل أن أكتب «ساحر الصحراء» قمت بزيارة القاهرة... ذهبت بمفردي ولم أكن أعرف شخصًا واحدًا هناك.

التقيت بشاب اسمه «حسان»، وطلبت منه أن يكون مرشدي في هذه

الرحلة، وبدأ يقودني في رحلات داخل القاهرة إلى مناطق لم أسمع عنها من قبل. ذهبت إلى الأهرام في اليوم الأول فوجدتها مزدحمة بالسياح وبها عدد مهول من البشر منعني من لمس جماليات المكان، فقلت لحسان أريد أن أذهب إلى الصحراء، فذهبنا بالجمال، وسرنا في الصحراء مسافة طويلة حتى وصلنا إلى تلٍّ عالٍ، وقفت فوقه فشاهدت الأهرام في منظر عام. حدث هذا في ليلة مقمرة، وكانت أشعة ضوء القمر تغمر المنطقة، وخلف الأهرام كانت أنوار القاهرة تسطع وتتلألأ، وكاد أن يُغشى عليَّ من سحر المنظر ورهبته، وشعرت بالحيرة الكاملة والاضطراب الشامل، أذكر أنني قد جلست على ركبتَي منهارًا، ووضعت يدَي على الأرض فأمسكت بجعران.

كانت لحظة رهيبة في حياتي كلما تذكرتها سرت القشعريرة في جسدي.

في الطريق طلبت منه أن يقرأ القرآن بصوتٍ عالٍ وبالطريقة التي أستمع إليها في مصر وهي تكاد تكون مغناة، فقرأ لي «الفاتحة»، وعندما طلبت منه أن يترجم لي معناها، وجدته يدعو الله أن يهدينا الصراط المستقيم، وهو الطريق الذي يسير عليه أولئك الذين أحبهم الله.

في العام التالي كتبت روايتي الأهم «ساحر الصحراء»، وكتبت فيها هذا المشهد بتفاصيله، ووضعت راعي الأغنام (بطل الرواية مكاني). نجحت الرواية لأنني كنت بطلها، أو على الأقل أشبه بطلها راعي الأغنام في أشياء كثيرة، أهمها شعوره الدائم بحلم قديم لا بد أن يحققه، فيحققه رغم أنه في كل مرة يمشي خطوة في اتجاه تحقيق الحلم تأخذه الدنيا إلى طرق أخرى جانبية، لكنه يعود بعد فترة إلى الطريق الرئيسي.

الفلسفة نفسها التي تدعو إليها الآية الكريمة: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»، وقد أصبحت هذه الآية هي دعائي اليومي المفضل.

قال كويلو:

«الأساطير والخيال هي الطريقة التي أعبر بها عن نفسي، وهي الطريقة التي أتحدث بها إلى الطفل القابع داخلي. عندما سافرت من نيويورك إلى المكسيك لم أكن أتحدث الإنجليزية، لكنني قمت بسفر ناجح لوجود لغة إحساس بين الناس أقوى من لغة التخاطب العادية.

أحب هذه اللغة لأنها لغة شعبية، وأنا أؤمن بأن الله قد خلق الفنانين من أجل أن يعملوا على خلق لغة تكاد تكون واحدة ومشتركة بين كل الشعوب.

وفي محاولة لمخاطبة الروح (روحي قبل أرواح الآخرين) أحببت هذه اللغة، لذلك فإنني عندما أكتب فأنا أفهم نفسي قبل أن أفهم معطيات الحياة.

وعندما أكتب أحاول أن أكون بسيطًا ومباشرًا دون أن أفقد جماليات اللغة ورصانتها وقيمتها.

حب الناس أنقذني من الجنون والإحباط. لقد اكتشفت أن الكاتب شخص وحيد للغاية. فرغم أنني معروف من قبل ثمانين مليون قارئ في كل العالم، فإن عدد أصدقائي لم يتغير، بل في تناقص مستمر بسبب الموت، لذلك سجلت عنواني على كل مطبوعاتي حتى أتسلم رسائل من القرَّاء، وبالفعل تسلمت رسائل مفعمة بالحب تؤمِّن حياتي النفسية.

أقول للقراء لولا محبتكم لاندثرت تلك المهنة، فهي لا تعد الكاتب بشيء سوى المحبة».

منصور

١

بدأت قراءة الشعر من دواوين يمتلكها آخرون، حداد والأبنودي وجاهين وحجاب وغيرهم، بخلاف أنها لم تكن متداولة على نطاق واسع يسهل الحصول عليها، كان الأمر أيضًا خارج الميزانية بعض الشيء، وعندما توفر فائض ما توجهت إلى مكتبة مدبولي وأنا أفاضل طوال الطريق بين ديوان لواحد من الأسماء السابقة، دخلت إلى المكتبة وخرجت أحمل الديوان الذي سحر قلبي بغلافه ومضمونه. كان «الرقص ع الحصى» لعبد الرحيم منصور هو أول ديوان شعر أشتريه من حر مالي.

جعلت الواقعة للرجل مكانة مختلفة في قلبي، ويقول تاريخه إنه يستحق.

٢

طفل مدلل في عائلة صعيدية.

بريق ما في عينيه جعل الجميع يتوقعون حكاية طويلة سيكتبها هذا الطفل يومًا، يطل الحزن منهما فيجعل الأم مفتونة بطفلها إلى درجة الخوف عليه من مجهول ما لوَّن عينَي وليدها بهذا البريق.

اشترت له خلخالًا (حجل حدادي كما يسمونه في قنا)، يشبه الذي ترتديه، ثم زينت أذنيه بحلق ذهبي، واشترت طرحة سوداء خفيفة، كانت تلفه بها إذا ما اضطرت إلى اصطحابه إلى مشوار خارج المنزل، كانت تدنيه منها وهي تخبز، تجلس أمام الفرن البلدي تونسه بالأشعار التي تحفظها، كانت أشعارها «عديد» بلغة الصعيد، وهو محض رثاء، بكائيات رقيقة صادقة، كانت مرثيات الأم على إيقاع طقطقة الحطب في الفرن تسوي الشعر في قلب الطفل المدلل قبل أن تسوي الخبز نفسه.

روح بلادك يا غريب الداري

كانت تغنيها الأم فأصبحت الكلمات وشمًا على صدر الطفل الذي لم ينزع الحلقان الذهبية إلا بأمر مديرة المدرسة الابتدائية كشرط لقبوله بها.

كان عبد الرحيم منصور شاردًا فوق سطوح المنزل يستمع بمفرده إلى القمر وهو يغني، كان يقسم لأصدقائه أنه استمع إليه، وأنه متأكد من وجوده مثلما هو متأكد من وجود فتاة ما ترتدي لبس المدرسة وقد عقدت شعرها بضفيرتين تنتظره على رصيف قطار ما.

لم يكن يعرف أنها النداهة.

وحده بليغ حمدي كان يصدقه ويؤمن بدعوته، وسرعان ما آمنت بها عفاف راضي.

لمين

مين يا قمر

بتطلع لمين

بتسهر لمين

نبكي تبكي علينا

نضحك تضحك لينا

نفرح تفرح بينا

لما الليل يرمينا

وحدك تسأل فينا

ونقولك لمين

بتطلع لمين

٣

«يرضيك نلف وراك كده في القهاوي يا عبد الرحيم؟».

طالت جلسة عبد الرحيم في غرفته يتصنع المذاكرة فرسب، فنقله أهله إلى أسوان بعيدًا عن أشباح غرفته الطيبين، وهناك حصل على الثانوية العامة، أرسل الشهادة إلى أهله، ثم اصطحب أشباحه باتجاه القاهرة وهناك اختفى تمامًا وانقطعت أخباره، إلى درجة أن الأم ندمت أنها خلعت عنه الحجل الحدادي والحلق الذهبي.

نزل والده وشقيقته الكبرى إلى العاصمة يبحثان عنه إلى أن عرفا أنه يرتاد أحد مقاهي المثقفين في وسط المدينة.

«يرضيك نلف وراك كده في القهاوي يا عبد الرحيم؟ أمك عايزة تشوفك ارجع».

كان عبد الرحيم قد وضع التحقق شرطًا للعودة والتواصل مع أهله من جديد. «لما تسمعوا اسمي في كل حتة هارجع»، كان هذا هو شرطه للعودة.

طبع ديوانه الأول ولم يحقق النجاح المنشود، قال أشعاره في الراديو، كتب أغنيات فأمسك أول طريق النجاح، ولكن سماع اسمه في كل حتة تأخر، حتى جلس هو وبليغ على سلالم مبنى الإذاعة يبحثان عن دخول لأغنية تؤنس العساكر الذين استقروا أخيرًا على الضفة الشرقية، كانت الكلمات ما أكثرها في هذه المناسبة، المئات منها تملأ الأروقة، لكن بليغ كان يبحث عما لن

يقوله أحد غيره، قال له عبد الرحيم: «فلتكن التحية للجنود قادمة من أبعد مكان في مصر، من أرض الربابة».

قال بليغ: «وهو كذلك».

كان عبد الرحيم يطل عبر شباك قطار الصعيد عائدًا إلى أمه بينما الغنوة تعيد نفسها في الراديو الترانزستور كل خمس دقائق، يليها صوت المذيع يقول من كلمات عبد الرحيم منصور.

وأنا ع الربابة باغني

عاشق ومغني

وإيه هاكون جنب عشاقك يا مصر

أصبحت الغنوة «السلام الوطني»(*) للانتصار.

٤

كانت الأم قد رحلت بينما كلماتها محفورة في أبعد سطر: وصيت عليَّ مين يا ابن والدي

وصيت عليك الخال الوالدي

يُتم عبد الرحيم تزامن مع رغبته في أن يكتب للحب عقب وفاة عبد الحليم حافظ بتجربته في الغناء الرومانسي، نصب عبد الرحيم نفسه خالًا لكل يتامى وغرباء العاصمة، من بينهم كان محمد منير هو الأقرب لشاب أسواني موهوب يدرس في القاهرة وبداخله شحنة الفن بِكر لم تُمس، كان عبد الرحيم هو البوابة والأم والخال، وجد نفسه في هذا الصوت، ووجد الطريقة التي سيغني بها للحب، «علموني عينيكي أسافر».

قبلها قال بليغ لعبد الرحيم وهو يراه يفتش عن الحب ليغني له على طريقته: «عروستك عندي، فيه عيلة أعرفها شبهكم، شبه الصعيد وأهله، بنتها اسمها وفاء». بعد عام كانت عالية عبد الرحيم منصور على حجر أبيها وقد أذابت بعضًا من غربته وحزنه، بينما بليغ إلى جواره على العود يكسر في كلمات كتبها عبد الرحيم على ورقة صغيرة: على قد ما حبينا

وتعبنا ف ليالينا

الفرحة ف مشوارنا

تاني هتلاقينا

٥

القاهرة ١٩٨٤.

بدأ أصدقاؤه يبحثون عن رائحته على المقاهي مثلما فعل والده وشقيقته منذ ربع قرن، كانوا يفتقدونه، وكان هو في مكان أفضل.

أراه يسير شاردًا في شوارع القاهرة كلما هبت الأغنية: بنودَّع ربيع

ونستقبل ربيع

تختفي الدموع

ويؤمرنا القدر

تنطفي الشموع

ويغيب القدر

ونصبح ذكريات مجرد ذكريات

قالت وردة.

يظهر لي السؤال كثيرًا.

قُدمت على مدى تاريخ الغناء في مصر أغنيات كثيرة لعيد الأم، وشهر رمضان، وانتصار أكتوبر، وأعياد الميلاد، والعيد الكبير، والربيع، ولكن واحدة فقط هي التي استقرت في الوجدان العام كسلام وطني لكل مناسبة منها، ما الذي تكفل باختيار الأغنية التي تستحق دون غيرها أن تنال هذا الشرف؟

ثم صحوت يومًا وقد ارتاح قلبي للربط بين هذا الشرف وكُتَّاب هذه الأغنيات.

السر عند الشاعر الذي اكتشف سر البهجة الكامن في هذه المناسبات، انحاز الوقت إلى الأغاني التي وضعت يدها على المنطقة اللامعة في الحدث.

لم تصبح أغنية «يا ليلة العيد» هي النشيد الوطني الرسمي لعيد الأضحى في مصر، لأنها فقط من غناء أم كلثوم، لكن لأن الشاعر أحمد رامي استطاع أن يفك شفرة فرحة ليلة العيد، ويضع يده على المنطقة الملهمة فيها وهي أنها «جددتِ الأمل فينا». وصلنا إلى ليلة العيد سالمين بعد «خناقة» وهو ما يجدد الأمل في أن نفعلها مرَّة أخرى. على مدى سنوات طويلة تهز أجيال من المصريين رؤوسها تأمينًا على اكتشاف رامي الذي لخص به الموضوع، ظهرت عشرات الأغنيات عن العيد تحكي البهجة، لكن الوحيدة التي فسرتها كانت الأغنية التي كتبها أمين مكتبة دار الكتب المصرية. الأغنية ألحان: رياض السنباطي.

في نشيد الصباح: «يا صباح الخير يا اللي معانا»، اقتنص بيرم التونسي مفتاح بدايات اليوم كما يفضلها كل شخص معجون بمصر: «يا هناه اللي يفوق من نومه.. قاصد ربه وناسي همومه». خلطة الهموم والعشم في الله يمكن اختيارها الخط الأساسي في قصة حياة معظم سكان هذا البلد. لم ينفِ بيرم أن هناك «على الصُّبح» همًّا ما، لكنه أشار إلى الطريقة التي نتعامل بها مع الموضوع كمصريين، وهي طريقة ناجحة تجعل دائمًا «البدرية ساعة هنية». الأغنية ألحان: محمد القصبجي.

في نصر أكتوبر نجحت «على الربابة» لأن الشاعر عبد الرحيم منصور أمسك كثيرين من قلوبهم بأن كتب شعور كل من هو ليس على الجبهة:

«ما أملكش غير إني أغني.. وأقول تعيشي يا مصر». في قرارة نفوس الملايين المحتشدين إلى جوار أجهزة الراديو يتابعون البيانات العسكرية يقين بأنه لا سلاح غير الدعاء يمكن المشاركة به في الحرب، وإن كان ثمة شعور أنه سلاح لا يضع صاحبه في الصفوف الأمامية إلى جوار من تراصت أرواحهم فوق فوهات بنادقهم، أو كما قال منصور: «وإيه هاكون جنب عشاقك يا مصر». الأغنية ألحان: بليغ حمدي.

في فراق شهر رمضان كتب عبد الفتاح مصطفى ما جعل الحزن على من نفارقه عميقًا، لكنه يغلف العريس المغادر بشهادة تقدير لم يحصل عليها أحد يومًا ما وهي كونه «هالل بفرحة.. ومفارق بفرحة». هناك شيء يفرحنا وصوله ويزعجنا فراقه، وهناك شيء يزعجنا وصوله ويفرحنا فراقه، لكن رمضان هو الوحيد الذي يقترن قدومه وفراقه بفرحة، «قفشها» عبد الفتاح مصطفى، فأصبحت «تم البدر» هي الأغنية الرسمية لوداع رمضان. مأمور الشهر العقاري الشاعر المتصوف الذي كان يصلي إمامًا بأم كلثوم اختار الجملة التي يودع بها أي مصري ـ صادق وخجول ولا يمتلك قاموسًا كبيرًا يعبر به عن نفسه ـ عزيزًا على أمل لقاء مشمول بالفرحة من جديد: «والله لسه بدري والله يا شهر الصيام». الأغنية ألحان: عبد العظيم محمد.

وضع جليل البنداري يده على ثلاثة أسباب لفرحة أي فتاة مصرية بالخطوبة، «شبكنا بدبلته.. وقرينا فتحته.. وعرفنا نيته وغلاوته عندنا». الأغنية الوحيدة التي عملت حسابًا لحدث مثل «قراية الفاتحة». مفتتح الفرحة التي لا تخلو من بعض القلق الذي تبدده خطوة «الدبلة» التي تكشف «نيته وغلاوته عندنا». لم يتغزل البنداري في جمال العريس وفستان الفرح وضجيج المعازيم، عرج مباشرة إلى ما يفسر لكل فتاة مصرية فرحتها التي تقف على أقدام ثابتة بفعل الصدق والغلاوة وسلامة النية في حراسة «الفاتحة». الأغنية ألحان: منير مراد.

الشاعر حسين طنطاوي كان يكتب برنامج الأطفال «غنوة وحدوتة» لأبلة فضيلة، إلى جانب عمله موظفًا في وزارة العدل. وعندما جاءته فرصة الكتابة عن «شهر رمضان» اختار أن يكتب لنفسه، لم يعبر عما تتمنى لجان الإذاعة الاستماع إليه وهي تقبل أو ترفض نصوص الأغاني، قرر أن يتحدث لشخص يحبه: «بتغيب علينا وتهجرنا وقلوبنا معاك.. وفي

السنة مرَّة تزورنا.. وبنستناك»، ثم وضع كلمة واحدة في متن كلماته قفزت بالأغنية بعيدًا عن المنافسة وجعلتها السلام الوطني: «فرحنا به»؛ مفردة لا يستخدمها ولا يجد فيها جرسًا محببًا سوى المصريين، ربما لو كان كتب «فرحنا بيه» لم نكن لنتوقف كثيرًا أمام الغنوة، لكن مفردة طنطاوي تخصنا، وتشبه قناعة قديمة مستقرة في الوجدان أن شهر رمضان هو نصيب مصر من الإسلام، بخلاف أن قليلًا من التركيز سيجعل الواحد يكتشف أن وصول رمضان لم يجعلنا «مبسوطين أو طايرين من السعادة»، ضبطة الميزان في «فرحنا به» لا أكثر ولا أقل. الأغنية ألحان: محمود الشريف.

شريف المنياوي سيناريست، كتب الكثير من الأفلام لعادل إمام وأحمد زكي وغيرهم، ولا يمكن معرفة كيف ظهر في فيلم «الحفيد» كشاعر كتب أغنية السبوع التي استقرت في الوجدان بلا منافس. فسر المنياوي نجومية المولود بكونه «أصغر واحد في العيلة». صحيح أنه استخدم التعبير الدارج «حلقاته برجالاته»، وهو تعبير بدوي صحراوي يتمنى فيه المحتفلون للمولود أن تكون الحلقان التي سيرتديها شابًّا حسب عادة القبائل هناك هدية من رجالها، خليطًا من أمنيات السعادة والعيش في خير كبار العائلة. لكن المنياوي لم يتوقف عند الجملة الشائعة وكتب «يتجوز على قد حالاته»، تعبير «على قد حالاته» مختوم بـ«صُنع في مصر»، جملة من قلب البيوت المصرية، يرون فيها اختصارًا لوصفة السعادة الزوجية. لم يتمنَّ المنياوي للمولود الصحة والمستقبل المشرق والأدب الرفيع وكل كلاسيكيات الأمنيات المشابهة، لكنه تمنى كما تتمنى كل عائلة مصرية في قرارة نفسها في مثل هذه اللحظات أن يصبح المولود «جن مصور زيه مفيش». الأغنية ألحان: فتحي حجازي.

إبراهيم جكلة، الفنان الشامل، مطرب وملحن وممثل ومؤسس نقابة العوالم، كتب ولحن أوبريت «عيد ميلاد أبو الفصاد»، ثم رحل بعدها بسنوات قليلة، لم يرَ بعينيه كيف أن أغنيته أصبحت السلام الوطني لأعياد الميلاد في مصر. يلتف المحتفلون حول التورتة، ويؤدون على سبيل الواجب بإيقاع بطيء وابتسامات بُذل فيها مجهود ما: «هابي بيرث داي تو يو»، ثم يتغير كل شيء في ثانية، تحضر البهجة فور أن تبدأ فقرة: «يلَّا حالًا بالًا هنوا أبو الفصاد». لا دليل على فرق مشاعر الاحتفال

بين «هابي بيرث داي تو يو» و«أبو الفصاد» أكثر من أن التصفيق الصارخ لا يظهر إلا مع أبو الفصاد، تصفيق يمتلئ بالسعادة والنشاز السعيد وسخرية مرحة من صاحب الليلة أيًّا كان عمره أو مكانته بتحويله لثوانٍ إلى طائر سمين بمنقار مدبب.

بألحان كمال الطويل أصبحت أغنية «الدنيا ربيع والجو بديع» السلام الوطني لمرح بداية هذا الفصل، لأن صلاح جاهين قبل أن يكتب كلمات الأغنية كان يعرف من الذي سيغنيها، لذلك لم يكتب جاهين الربيع وبهجته، لكنه كتب «سعاد حسني».

١

القاهرة يوليو ٢٠٠٩.

أشياء كثيرة تربطني بمنطقة وسط البلد.

معظم الصحف التي عملت بها والتي ترتب على وجودها في هذا المكان ارتباط شرطي بمقاهي المنطقة، ارتباط شرطي ترتب عليه أن تصبح هذه المقاهي أماكن تجمع لأرباب المهنة، أرباب المهنة الذين حولوا المقاهي بطبيعة الأمر إلى صالونات أدبية وثقافية، هذه الصالونات أصبحت في نهاية التسعينيات الإرهاصة الأولى لبرامج التوك شو في مصر كلها، بل إن معظم مقدمي أشهر هذه البرامج، وهم أبناء قدامى للمنطقة، اكتسبوا مهارات المهنة من اختلاطهم برواد هذه المقاهي.

كان الواحد يلتقي بأصدقائه أثناء التنقل بين شوارع وسط المدينة من مقهى إلى آخر بالأريحية نفسها التي تلتقي بها في الصالة بمن يشاركونك السكن في الشقة نفسها، وكانت الاشتراكية هي المسيطرة على فلسفة تعاملاتنا اليومية، فمهما كان الجميع مفلسين يكفي وجود شخص واحد حاصل لتوه على مكافأة من الجريدة التي يعمل بها ليمنح جيلًا بأكمله شعورًا بالثراء الفاحش، فالاحتياجات بسيطة تبدأ بساندويتشات المكرونة وتمر بأكواب الشاي والقهوة وتنتهي بأن يضع الجالس علبة دخانه أمامه متاحة للجميع سواء من يشاركونه المنضدة نفسها أو المقهى نفسه أو الإنسانية عمومًا.

في كل الأحوال يضمن لك الأصدقاء دائمًا في نهاية اليوم ما يكفيك لاستقلال مواصلتين، واحدة تأخذك إلى منزلك وواحدة تعود بك إلى وسط المدينة في الصباح.

ليست المدينة الفاضلة. كل تجمع له أمراضه التي تشبهه، سواء كان تجمعًا لفنيي الخراطة أو للنخبة المثقفة، لكن الأمر إجمالًا كان به من الراحة والونس ما ينسيك مرارة بعض المتطفلين والمرضى وعديمي الموهبة.

قضيت هذه السنوات أبحث عن فرصة للسكن في هذه المنطقة، ولكن لأن الله يعلم جيدًا أنني لن أتحمل ملابسات العيش وحيدًا أعزب في وسط المدينة بما ينطوي عليه الأمر من فساد متوقع، كان رحيمًا وكلل مجهوداتي للسكن هناك على مدى عشر سنوات بالفشل الذريع.

في يوليو ٢٠٠٩ وبعد أكثر من عشرة أعوام استجاب الله لدعائي ولكن

بشروطه، فمنحني الشقة التي أحلم بها في وسط البلد، وزوجة أيضًا.

٢

عندما تقرر أن أسكن هناك كنت أتلقى السؤال نفسه يوميًّا: «حد يسيب المعادي ويسكن وسط البلد؟ ليه عملت كده؟». كنت أقدم إجابة واحدة لا تتغير أحسبها إجابة مفرطة في السخرية، أقول: «عايز أكون قريب من الثورة لما تقوم».

صباح يوم ٢٨ يناير كانت زوجتي على وشك أن تضع مولودنا الأول، يفصلنا عن حدث الولادة ما بين ساعات وأيام، قررت أن أنقلها في صباح هذا اليوم لمنزل حماتي باعتبار أن شقتنا التي تطل على شارع القصر العيني ستكون خطرًا على حالتها، كانت الشقة قد تشبعت قبل يومين بالغاز والدخان، تسكن حماتي على بُعد خمس عمارات في عمق المنطقة، فقلت لنفسي إن إقامة زوجتي لديها في هذه الظروف الخاصة تبدو أفضل كثيرًا.

كان للسكن في قلب الحدث ميزة إضافية، كلما اشتد أثر الغاز المسيل للدموع أثناء المواجهات كنت أصعد إلى شقتي لأستشهد لمدة نصف ساعة ثم أغسل وجهي لأنزل من جديد، وهكذا إلى أن فوجئت في إحدى المرات بالبواب قد أغلق باب العمارة بالجنزير واختفى، فلم يكن أمامي إلا العودة إلى الشقة مكسورًا، تسللت إلى الشرفة تحت وطأة القصف المتبادل وعلقت علم مصر (علم المنتخب سابقًا)، وظللت ألوح بعلامة النصر إلى أن ابتعدت المصادمات باتجاه آخر الشارع، ثم بدأ الجنود في الانسحاب، فنزلت ومسحت بالبواب أرض المعركة.

في صباح اليوم التالي كنت أتأمل الجدار الخارجي للعمارة التي تقطن بها الحماة فوجدته مليئًا بآثار الخرطوش، أما المسافة ما بين ماسورة الغاز الخارجية الرئيسية وحائط العمارة فقد كانت مستقرًّا لفوارغ طلقات الغاز التي كان الجنود يطلقونها إلى أعلى طوال الوقت. كانت المعركة أمام بيت حماتي أكثر ضراوة.

٣

أحتاج وقتًا طويلًا حتى أندمج مع جيراني الجدد في كل مرة أغير فيها سكني، خلال هذا الوقت يمنعني الخجل من أن أقدم جملة مفيدة بلا ارتباك، لذلك أكتفي بأن أبادلهم طيلة الوقت ابتسامًا حقيقيًّا صادقًا، حتى عندما يكون لدى أحدهم حالة وفاة تصيبني لعثمة داخلية قبل أن أقدم جملة التعازي المألوفة فكنت أستعيض عنها بابتسامة أخرى لكنها أكبر من كل مرة.

في مساء السبت ٣٠ يناير كان كل من ابتسمت في وجوههم خلال الفترة الماضية يقفون إلى جواري أمام باب العمارة.

بعد أن ذاع أمر السرقة والبلطجة وهروب المساجين وحتمية تكوين لجان شعبية وجدنا أنفسنا نقف في الشارع نتعرف على بعضنا البعض للمرة الأولى، كان التوتر يخفي ودًّا ما، ولم يحُل الذعر بيننا وبين السخرية من طقم سكاكين المطبخ الذي يقف به رجالة بشنبات أمام بيوتهم، الضحك كان ملهمًا ورفع مستوى التواصل الفكري بيننا فتغيرت خطة التسليح كالتالي، سحب الحواجز الحديدية الموجودة أمام البنك المجاور لعمارتنا واستخدامها في غلق الشارع بالطول، تجميع صناديق البيبسي والكوكا كولا الفارغة من كل شقة ووضعها خلف إحدى السيارات التي تركن أمام العمارة بحيث تكون هذه السيارة ساترًا يمكن من خلفه قذف المشتبه بهم بالزجاجات في منتصف الرأس تمامًا، سرعة العثور على عدد كافٍ من السنج والصافوريات والسيوف والكذالك والشوم العادي والمدبب وتوزيعها على كل من في الكمين.

التنسيق مع اللجان الشعبية الموجودة (قبل ـ بعد) لجنتنا لإحكام الرقابة على أي سيارة تمر والاتفاق على علامة ما تؤكد لنا أنه مر بالفعل من اللجنة التي تسبقنا وأنه خالٍ من أي مشاكل، كنا في البداية قد اتفقنا على أن تكون العلامة هي رفع مساحات السيارة، وهي فكرة سرعان ما ثبت فشلها بعد أن اكتشفنا أن معظم السيارات بدون مساحات أصلًا، ثم اتفقنا على أن تكون إرغام قائد السيارة على أن يسير وشنطة سيارته مفتوحة وهو أمر صعب السيطرة عليه في بعض السيارات الحديثة التي تنغلق شنطها أتوماتيكيًّا بمجرد السير، فاتفقنا على كلمة سر مع التنبيه على قائد السيارة أن يجتاز كل اللجان القادمة والرخص في يديه ونور الصالون مفتوح.

كانت كلمات السر تتغير كل فترة، بدأت بـ«سبع الليل» ومرت بـ«الأشباح» وانتهت بـ«مصري أصلي».

رفض كل الاقتراحات المؤذية مثل العرض الذي تقدم به أهلي عبر اتصال هاتفي من سوهاج يعرضون فيه نقل قطع خفيفة من البنادق الآلية لدعم عمل اللجنة، أو اقتراح الرفاق في السيدة زينب بأن يمدونا بفرد حي أو حتى فرد خرطوش، لكن في الوقت نفسه تم اعتماد بعض الاختراعات التي تبناها بعض الرفاق، مثل عصا المقشة الطويلة المثبت في نهايتها سكين حاد بحيث يمكن استخدامها كرمح، أو الكرابيج البلدي المنقوعة طوال الوقت في زيت مواتير،

بينما تخلينا عن فكرة الاستعانة بكلب بعد أن أحضر أحدنا كلبًا بلديًّا أسميناه «نيفا»، وربطه أحدهم في قضبان الحاجز، لكنه أرهقنا لفترة طويلة حيث كان مريضًا ومنهكًا من كثرة الغاز الذي استنشقه أثناء المواجهة، وكان بحاجة إلى التغذية والتدفئة والطبطبة طوال الوقت فأطلقنا سراحه.

أما القرار الأهم فقد كان تحويل مدخل العمارة إلى بوفيه يقدم المشروبات الساخنة المجانية طوال الوقت للرفاق باستخدام الكاتل المملوك لحارس العقار وبدعم تمويني من كافة شقق العمارة.

كانت الأيام العشرة الأولى صعبة، إذ كنا طول الوقت في انتظار الأشباح التي على وشك الوصول إلى الكمين الذي نقف فيه، كان يزورنا كل فترة شاب على موتوسيكل طالبًا منا أن ننتبه وفي كل مرة كان يقدم سببًا مختلقًا.

انتبهوا «فيه عربية من بتوع التوحيد والنور مسروقة وجواها بضاعة بنص مليون جنيه»، انتبهوا «فيه عربية كيا حمرا بإزاز فيميه فيها اتنين بيضربوا نار على الناس في اللجان»، انتبهوا «فيه عربيتين إسعاف فيهم مساجين هربانين مرفعين السواق»، انتبهوا «فيه واحدة منقبة في عربية جيب سودا بتوزع كحك بعجوة مسمم على الناس في اللجان»، انتبهوا «أي حد ييجي يقولكم عايزين متبرعين بالدم امسكوه. طب ليه؟ بيحقنوا الناس بفيروس وفيه تلاتين واحد ماتوا في البساتين»، انتبهوا «فيه خمسين واحد هجموا على العيال في بركة الفيل والدنيا والعة وفيه ضرب نار»، انتبهوا «أي ضابط شرطة يعدي عليكوا امسكوه وسلموه للجيش»، انتبهوا «وصلوا المنيل وجايين على هنا؟ هم مين؟ محدش عارف هم مين».

كانت أيامًا صعبة.

هل تريد أن تعرف الحصيلة؟

سيارة بها ضابط شرطة قال لنا إنه من طاقم حراسة فتحي سرور، قلنا له سنسلمك للجيش فرحب بذلك كثيرًا، فمن المؤكد أنه كان سيلقى هناك معاملة أفضل من التي يلقاها كل خمسمائة متر في لجنة.

شاب مريب، لا يحمل أي إثبات شخصية، عند تفتيشه ضُبطت خواتم ذهبية معه، تم تسليمه للجيش، اعترف للضابط أنه سرقها من محل كبير في المهندسين، بعد أسئلة كثيرة عرف الضابط أنه فرع أحد محلات «داماس»، فقال له: «ده الدهب، فين الألماظ بقى؟». فقال له: «والله ما كان فيه ألماظ، المحل كان متكسر، دخلنا ما لقيناش غير شوية الدهب دول وشوية

حاجات فضة سبناهم». فقال له الضابط: «وهو داماس بتاع فضة؟ ما هو ده الألماظ يا ابن العبيطة».

قبل التنحي بيومين تنهد سمير الأشقر الأب الروحي للكمين قائلًا لنا حكمة الأيام الماضية: «بقالنا أسبوعين واقفين في البرد وما بننامش علشان هوا».

٤

في اليوم الثالث استفحلت ظاهرة ندرة السجائر وكروت الشحن والعيش البلدي.

كانت الأكشاك الموجودة في المنطقة قد تحطمت خلال المواجهات دون استثناء، أما المحلات الكبيرة التي كانت تفتح أبوابها لساعتين في صباح كل يوم فقد نفد كل ما بها من دخان وكروت شحن في اليوم الأول على الرغم من كون خدمة المحمول مقطوعة.

خال زوجتي لديه من المعارف من يقطنون في أماكن بعيدة شبه مستقرة ما سمح له بأن يجلب كميات من الدخان كانت هي المدد الرئيسي لرجال الكمين.

أما أهلي في سوهاج فبعد عودة خدمة المحمول كنت أتصل بهم يوميًّا ليملوا عليَّ رقم كارت شحن جديد سرعان ما ينفد مع كثرة الاستهلاك لمتابعة ما يحدث طوال الوقت.

وحده الخبز كان مشكلة.

في يوم وبعد بزوغ ضوء النهار، وبينما الرفاق في اللجنة يستعدون للعودة إلى شققهم، لمح واحد منا من بعيد شابًّا على دراجة يسير ويحمل تقفيصة عيش بلدي فطارده إلى أن أتى به حيث نقف.

«رايح فين والعيش ده بتاع مين؟».

«بتاع أشرف اللي فاتح عربية فول جنبكم».

كان الاتفاق مع شاب الدراجة مليئًا باللطف والحزم والإغراءات: «عايزينك كل يوم تجيب لنا ١٠٠ رغيف».

وقف واحد منا يحصي عدد الشقق والسكان والظروف التي نعيشها، فانتهى إلى نتيجة وافقنا عليها جميعًا: «عايزينك كل يوم تجيب لنا ٢٠٠ رغيف».

لم تمنعنا المائتا رغيف من أن يكون ختام برنامجنا اليومي عند عربة أشرف بائع الفول، كان البرد والإجهاد والسهر ومشاوير الاطمئنان على من في الميدان المتكررة طوال اليوم، كل هذا كان كافيًا لأن نلتهم أشرف نفسه في كل صباح.

ينتهي الإفطار الفاحش ويلم أشرف أشياءه وينصرف بعد أن نفد كل ما يمكن أن يقدمه، ثم يسحب كل واحد من السكان ما يلزم أهله من طاولات الخبز المفرودة في مدخل العمارة ثم يتجه إلى شقته.

٥

كل ساعتين كنت أصعد للاطمئنان على اقتراب موعد ولادة زوجتي.

بسبب الغلاسة التي تشهدها لجنتنا واللجان الأخرى في التضييق على الغرباء كنت أدعو الله أن يحين موعد الولادة في الصباح حيث لا لجان ولا زحام.

وبالفعل في تمام منتصف ليلة الخميس ٣ فبراير قالت حماتي: «لازم نتحرك على المستشفى دلوقتي».

المستشفى في المنيل، وسمعة اللجان الشعبية هناك تسبقها، والأساطير التي يجري تداولها عن جهود المنيلاوية الخارقة في ضبط الخارجين عن القانون تجعل الواحد يفكر ألف مرة قبل أن يهوب ناحيتهم.

لم يكن هناك بديل عن التحرك في وفد مكون من عدة سيارات، كانت الخطة أن يركب الشباب في السيارة الأولى لشرح ملابسات هذه الزفة للواقفين في كل لجنة، بحيث تقصر المساحة الزمنية اللازمة للتفتيش والاستجواب وفحص الرخص، وتقليل الجهد المبذول في دحض الشك الفطري الذي يسيطر على كل من يحاورك وفي يده سلاح يسألك: «إشمعنى يعني جاي من هنا؟».

أصدقائي أيضًا يعرفون أنني أحمق ومتسرع وساخر في عز الأوقات التي لا محل فيها للسخرية أبدًا، فنصحوني بألا أفتح فمي حتى نصل إلى المستشفى.

في المنيل كان لديَّ قراء يعرفونني أكثر من المربع الذي أسكن فيه، استقبلنا واحد منهم على مدخل المنطقة وأصر أن يرافقنا بنفسه حتى المستشفى، فزادت الزفة سيارة فولكس حمراء مكتوب عليها بالإنجليزية «Fuck»، الأمر الذي أكد لي أنه من قرائي فعلًا.

في المستشفى كان «وصول» رقية إلى الكوكب في يوم اسمه أصلًا جمعة «الرحيل»، تفاءلت بالمفارقة وتذكرت العم صلاح جاهين وهو يقول: «لا بد ما يموت شيء علشان يحيا شيء».

كانت هناك فترة على بعضها من العمر توشك أن تموت حتى تبدأ فترة جديدة حياتها، فترة لم يكن بها أي شيء واضح في هذه اللحظات سوى قطعة من اللحم الأحمر لا تراني بينما أنا لا أرى غيرها.

٦

تُوفِّي حمايا بينما رجل غريب يقف ليلًا في أحد شوارع تونس يهتف: «بن علي هرب.. بن علي هرب».

كان الحزن على حمايا يضيف بُعدًا ثالثًا على كل ما يعيشه الواحد في هذه الأيام، كنت أقولها دائمًا في وجهه وفي غيابه أنه أحلى ما في زيجتي، وكان رحيله سببًا كافيًا لعدم عمل سبوع للمولودة، لم يكن هناك أي مجال لـ«دق الهون» الذي تقول الأساطير الشعبية إنه تقليد يحمي المولود من الخضة طوال عمره، لم أدق لها الهون، وتأكدت أنها ليست أسطورة، فالبنت حتى هذه اللحظة تفزع إذا قلت لها صباح الفل بصوت أعلى من المعتاد قليلًا. لكن جدتها قالت لا مانع من هز الغربال ونتر الملح والصلاة على النبي في أذنيها، كان الطقس مختصرًا في حضور والدتها وجدتها وإحدى قريباتها فقط، وكنت أصورهن بكاميرا الموبايل.

كان التلفزيون مفتوحًا وكنا ننتظر خبرًا مهمًّا.

أثناء تصوير الطقس كنت أستمع إلى صوت عمر سليمان في الخلفية ولم أكن أتوقع جديدًا، إلى أن أقر بتخلي مبارك، فظللت أنقل الكاميرا ما بين البنت وعمر سليمان إلى أن انتهى الخطاب.

جريت باتجاه السلم. كانت الفرحة أكبر من انتظار الأسانسير. وأمام باب العمارة كان الشعب الذي قضى الأيام الماضية يفكر ألف مرة قبل أن يمر من هذا المكان، يمنع سكانه الأصليين من الخروج من عماراتهم من فرط الازدحام.

عدت إلى مدخل العمارة وجلست على السلم، كنت مرتبكًا أنقل النظر يمينًا ويسارًا، يمينًا كانت الناس تنزل وتصعد فرحة تحمل أعلام مصر، وإلى يساري أمام بئر السلم مئات من أرغفة الخبز البلدي ممددة على الطاولات تيبست وتراصت طبقات فوق بعضها، لمحت «نيفا» يسحب واحدًا منها ويخرج في هدوء وكان واضحًا أن صحته قد تحسنت كثيرًا.

كان بليغ حمدي خارجًا للتوِّ من محل حلواني أحمد خليل في وسط المدينة، صافحته وذكَّرته بنفسي كواحد أدمَن الكتابة عنه بمناسبة وبدون، صافحني بتواضع فسألته هل الأغاني الحلوة التي لحنها وغنتها وردة هي التي جعلته يقع في غرامها، أم أنه وقع في غرامها فلحَّن لها هذه الأغاني الحلوة؟

قلت له: «نحن شعب يعيش من فضلة خير هذه العلاقة بحُلوها ومُرها، وأن مراوح قلوبنا تعمل بأقصى كفاءة بظهوركما معًا حضرتك والست وردة، مرة واقعين في فتنة الغرام التي تنافس فتنة «العيون السود»، ومرة غارقين في تأمل المصير الذي اكتشفاه معًا «ونصبح ذكريات مجرد ذكريات»، ومرة نقاوم سطوة ما ثقيلة بينما نتابع الوداع الأكثر أناقة في التاريخ «باودعك.. يا جرح لم.. يترك ألم»».

وضع بليغ صينية البسبوسة التي كان يحملها فوق سطح سيارة قريبة ثم أشعل سيجارة من علبته الدانهيل وقال: «خُلق الفن ليفسر الحب، يستطيع الإنسان أن يفسر بشكل صحيح جزءًا يسيرًا من مشاعره، غالبًا هي المشاعر الأولية البسيطة، فرحة ابنة مكسب أو حزن ابن فقدان، ثم يأتي دور الفن ليفسر ما هو أكثر تعقيدًا».

ثم سألني: «هل تتابع حفلات أم كلثوم التي تبثها المحطة الخليجية كل مساء؟». قلت له: «نعم». قال: «هل مر بك المقطع الشهير الذي كان فيه الجمهور يقفز من مكانه إعجابًا بالست، بينما سيدة وسط هذا الضجيج تقاوم دموعها وهي تبتسم وتقول بصوت خفيض مخاطبة أم كلثوم: «الله يخرب بيتك»؟ عبرت هذه السيدة عن مشاعرها بسباب المحبة لأن الست فضحتها، لقد أخبرت الست العالم كله بحقيقة ما يدور في قلب هذه السيدة، وكانت دقيقة في وصفها إلى درجة أحرجتها بالقدر نفسه الذي أسعدتها به».

قلت له: «وما حاجتنا للتفسير؟». قال: «هذا فضول السمِّيعة».

كنت أفكر أن بليغ يهرب من إجابة السؤال، ولاحظ هو ذلك بذكاء شديد، فقال: «كنت أصنع أغاني لوردة أحاول من خلالها أن أفسر لنفسي مشاعري تجاهها. أرى نفسي ضيفًا على كوكب الأرض خُلق ليراقب، طموحه أن يمر خفيفًا تاركًا أثرًا يعبر عن امتنانه، يرتب لرحلة حياة شعارها «رجلك ما تعلِّمش على الأرض»، نصيحة أمهاتنا القديمة، فكنت أهرب مما يعمق ارتباطي بمحطة سأغادرها سريعًا، ثم وقعت في الحب، الحب يصنع لك جذورًا، وهذا

أفضل ما فيه وهو أسوأ ما فيه أيضًا، منذ التقيت هذه الفتاة الجزائرية وأنا أحاول الهروب في طريق كل أبوابه تقودني إلى ما هو أعمق، فكانت الأغاني، كوبليهًا مبهجًا يقول الحب، وكوبليهًا غارقًا في الشجن يقول الورطة».

كان بليغ ينظر إلى ساعته كل قليل، فأدركت أنه مرتبط بموعد، صافحته وطلبت منه أن يتحرك معتذرًا عن الدقائق التي سرقتها منه. ألقى عقب سيجارته بعيدًا ثم قال: «الغناء يحمي المحبين من الجنون أو الانتحار، وهو أخطبوط بثماني أذرع، اثنتين للطبطبة، والبقية مشغولة في فك العقد التي تظهر لك مع كل خطوة، الحب غامض، المحظوظ في الحب هو الذي يعثر على الشخص الذي لم يكن يبحث عنه أبدًا، وهو يغير ما لا تقدر الثورات المسلحة على تغييره، وهو في الأصل خطأ تقني قديم، يعتقد الواحد أنه يحب إنسانًا ما، والحقيقة أنه يحب نفسه من خلال هذا الإنسان، كلنا نعشق المرايا الصافية لأنها تقدمنا لأنفسنا في الصورة التي ترضينا، المرآة لا تلمس قلوبنا لكن صورتنا هي التي تمنحنا فرحًا ما، تدعي أنك تحب شخصًا وتتوهم أنك أسير عينيه، والحقيقة أنك أسير صورة نفسك في هاتين العينين، يخترع الواحد منا شخصًا يحبه بالروح نفسها التي اختُرعت بها الكهرباء، لا أحد يعشق الكهرباء لكننا لا نستطيع أن نستغني عن كل ما يترتب عليها».

كنت أستمع إلى بليغ بينما أراقب رجلًا مسنًّا يدفع عربة بطاطا يتصاعد من مدخنتها غيم أبيض، وأفقت على يده تربت على كتفي قائلًا: «أنت رجل تكتب الشعر والأغاني وستفهم ما أقوله، الغناء رحمة للمحبين، يأخذ بيدك لتعبر الطريق الذي يمتلئ بالعقد، يحلها واحدة تلو الأخرى، وما إن تنحل واحدة حتى تصيح «الله»، الفن الحقيقي خُلق لكي يجعلنا نقول «الله»، لأنه يساعدنا على الاكتشاف والمعرفة، والمعرفة هي جنة الطيبين».

أكره هذه الملاحظة، أشعر أنها قد تفسد شيئًا ما، لكنها واجبة: هذا الحوار هو محض خيال الكاتب.

كانت المرة الأولى التي يحفظ فيها الواحد طفلًا الاسم الثلاثي لخواجة، «دييجو أرماندو مارادونا»، لم تكن صدفة أن تصبح المرة الثانية بعد سنوات من نصيب «جابرييل جارسيا ماركيز»، كلاهما تشبَّع بسحر أمريكا اللاتينية الغامض، ثم أعاد كل واحد منهما تقديمه على طريقته.

عندما أحرز مارادونا هدفًا بيده في مرمى إنجلترا، لم تتجرأ الصحف إلا على الحَكم، كان هدفًا سهلًا لا يثير انتقاده أي مشاكل ضخمة، رجل عربي يحكم للمرة الأولى في كأس العالم الذي يندر أن يحضره العرب كلاعبين أو حكام، كان ممكنًا أن يشاركه مارادونا تلقي الذخيرة التي أُطلقت على الرجل من كل مكان، لولا أنه أخرس الألسنة بهدف خيالي حوَّله بعد نصف ساعة من الهدف المسروق إلى لص نبيل.

مارادونا أولى المعجزات التي تعرف عليها الواحد في طفولته، كان الفن معجزته، توقفت في الطفولة عند مقال لمحمود السعدني يلمح فيه إلى الشبه بين مارادونا وأحمد عدوية، اكتشفت كبيرًا أن كليهما يقدم السلطنة على الطريقة الشعبية، أفكر لو أن مارادونا كان مطربًا ورأيته يغني:

يا قلبي سيبك من اللي ف العشق فرَّط

ولا تآمنلوش ولو جابلك غداك رُمان ومِفرَّط

تحولت قلوبنا إلى حصالة، يُسقط بداخلها عملات من مختلف الجنسيات مع كل لمسة للكرة، الكرة نفسها وقعت في غرامه، منحته سطوة الحضور، تحيط به هالات الجاذبية كالقديسين، تلك الجاذبية التي كانت حاضرة حتى في لحظات الانهيار.

كان الرصيد كبيرًا بما يسمح للنجم أن يتمرد دون أن تنفد المحبة، وظلت القلوب معلَّقة به والمعجزة تتألق في ملاعب أخرى، جاذبية أن يرتبط اسم لاعب كرة بعصابات المافيا الإيطالية والثائر الكوبي كاسترو، إدمان المخدرات ثم الإقلاع عنها بالانغماس في أحضان خلاسيات كوبا رقصًا وحبًّا وجنونًا. يوم سقط في النوم وهو يتابع مباراة مهمة في الاستاد نُشرت له الصورة على إحدى صفحات فيس بوك، ترك العشرات إيموج «أغضبني» مقابل أكثر من ٨٢ ألف قلب أحمر يليق بمشهد طفل غلبه النعاس وهو يتناول طعام إفطاره.

ظل مارادونا يسحب من رصيده فيزيد.

كان انهياره مليئًا بالقصص الأسطورية، قضايا تطارده، تجارب تدريب

فاشلة، فشل عاطفي، وفي كل مرة كانت القصة تستدعي في المخيلة البطل القديم، يقارن الواحد بين حجم المصيبة الجديدة وبين تمريرات وقذائف وأهداف، فيغفر وفي قلبه يقين يشبه مقولة أحد الكُتاب: «لا يهمني ما فعله مارادونا في حياته، يهمني ما فعله في حياتي».

واقعية مارادونا سحرية، تمامًا مثل ماركيز، العنف المخلوط بالفن والحماس، النجاح والتحرر منه، الفشل والقدرة على تجاهله، الرحلة التي لا يمكن التنبؤ خلالها بمحطة واحدة.

الصبيانية التي يمكنك أن تتعلم منها، يقول: «الجري خلف الكرة يجعلني أسعد إنسان في العالم». عينه تعي المأساة، يقول: «كنت وما زلت وسأظل مدمنًا للمخدرات، الشخص الذي تورط في المخدرات يومًا ما سيظل عليه أن يحاربها كل يوم». حسه الساخر لا يفتر، يقول: «الوصول إلى منطقة الجزاء واختراقها دون إحراز هدف يشبه الرقص مع أختك». إيمانه بجذوره ملهم، يقول: «لم أقف في حياتي بثبات على أرض صلبة مثل اللحظات التي كنت أرتدي فيها قميص منتخب الأرجنتين».

كان القلب الذي اختلطت فيه الحماقة بالإنسانية الصافية، المقاتل الذي لا يقبل الإهانة. ظل سنوات يفتش عن الحَكم العربي حتى زاره في منزله بتونس، استقبله الرجل بجلباب البيت، وأمام العالم كله قبَّل مارادونا رأسه.

لماذا بدأت حملة لقاح فيروس كورونا بأصحاب الأمراض المزمنة وهو أمر مفهوم، والأشخاص فوق سن الأربعين؟ استثناء يخاطبني بشكل شخصي كان بحاجة إلى تفسير، لماذا يضع الكوكب في حساباته على هامش الجائحة أن يحمي جيلي بالذات؟ أفكر في المهارات التي يمتلكها هذا الجيل ويصعب على الكوكب أن يعوضها.

هذا جيل تأسس على أن يعبر عن نفسه من خلال «مسرحية» عدد ٢ شريط فيديو «vhs» مدتها ٣ ساعات، ثم طور نفسه وأصبح قادرًا على التعبير عن نفسه في فيديو ٣ دقائق أون لاين.

جيل تأسس على التواصل مع الآخرين باستخدام عملات معدنية (شلنات وبرايز) يستعيرها من المارة ويسقطها في فتحة صدئة، ثم طور نفسه وأصبح قادرًا على التواصل مع الآخرين بـ«الفليكسات» التي يشحنها «على الطاير»، بنفس المرونة التي انتقل بها من القدرة على تعمير وابور الجاز إلى ضبط تايمر الميكروويف.

جيل كان يخفض أحدهم صوته قدر الإمكان على المقهى قبل أن يطلب من القهوجي أن يكون الشاي «فتلة»، خوفًا من سخرية بقية الشلة، ثم طور نفسه وأصبح يهتف بجرأة عالية الصوت في قلب الـ«Circle k» طالبًا ميكاتو سيكيمد ميلك ويز هايزلنت فليفور.

جيل كان شاهدًا على «عادل إمام»(*) وهو يبني زعامته على مهل عامًا بعد عام، ثم تأقلم مع نوع جديد ينزل إلى سوق الفن زعيمًا من أول يوم.

جيل عظمته في كونه الوحيد المحشور في اللحظة نفسها بين ملايين مشاهدات ويجز على يوتيوب، وطابور تذاكر حفلات مهرجان الموسيقى العربية.

جيل اتسع صدره لدس ويجز على مروان بابلو ويضعه في البلاي ليست بعد أغنية وردة «وأتاري الدنيا غدارة».

جيل تأسس على «قيمة» اللي بيطلعوا في التلفزيون، ثم استسلم لفكرة «قلة قيمة» التي أصابتهم، علَّق صورة أمير القلوب فوق الفراش ثم استيقظ على منحه لقب إرهابي بحكم محكمة، سكن وأحب وصادق وأخذ دروسًا في مدن عشوائية بالكامل (الكيلو أربعة ونص على سبيل المثال)، ثم عاصر مأساة أسرة تستدين للتصالح على تندة الشرفة، شبع من «التنمر» قبل أن

يجرمه الكوكب، الندوب التي تغطي جسده جعلته يشارك في المعركة بضراوة ويدعم الفكرة.

جيل أغنية طفولته أصلًا كانت «دبدوبة التخينة».

جيل عاصر بنفسه الزيجات «اللي واقفة على باكو»، وكبر ليدفع «الباكو» فاتورة كهرباء.

جيل تأسس على مشاعر في رقة تسمية المحبوبة «الجو» تعبيرًا عن سحابة رقيقة يصعب الإمساك بها، ثم تطور ودخل بثبات منطقة إن المحبوبة «كراش»، بكل ما تعبر عنه الكلمة من تصادم بين أتوبيس نقل عام وكشك سجائر، الجيل الشبعان (اللي عينه مليانة) الذي لحق السلاطات عندما كانت أوبن بوفيه في بيتزا هت.

آخر جيل يتحرك كجبل، كتلة لا مسافة بين تفاصيلها، من «رحلة المصيف»(*) إلى فيلم السهرة مرورًا بلون أقمشة الستائر وأطقم السفرة في المنازل.

جيل لا يخلو دولاب ملابسه أو تابلوه سيارته أو درج مكتبه من ملف تحاليل وروشتات، «بونبوني» جيوبه المسكنات وأدوية الحموضة، مبتكر مصطلح «ماشي بعلاج» يضبط به انحرافات الصحة العامة نتيجة التقدم في السن، لكن لا علاج لأثقل أمراضه.. الحنين، لا يهتز كثيرًا إذا ارتفع ضغط دمه وزاغت عيناه وارتعشت أطرافه، لكنه يفقد توازنه الداخلي في ثانية إذا لعب الراديو بالصدفة «كان فيه فراشة صغنططة».

مقاتل رقيق القلب تعاركه وطوق نجاتك يقينك أنه خصم شريف...

نموذج يحافظ عليه العدو قبل الصديق.

ملل هذا الجيل لا يشبه ملل المترفين، هو ملل المرهقين الذين قطعوا الزمن يتنقلون بين عوالم راسخة، مع كل نقلة يغير جلده وأدواته وطريقة تفكيره وتخطيطه للمستقبل، حتى يحين موعد النقلة فيبدأ من جديد، تلفون البيت، الموبايل، حرب الخليج، النظام العالمي الجديد، الإنترنت، الفضائيات، ثورات، أوبئة، رموز تنهار، تعويم، إصلاح اقتصادي، سوشيال ميديا. وعلى الهامش عازب ثم زوج ثم أب لجيل يتحدث لغة جديدة، نقلات مربكة في فترة قصيرة ابتلعها كأنها حبات ريفو.

صلَّبته الحوادث، جعلت منه الكيان الوحيد الذي يصلح كجسر بين نقيضين يقطنان الكوكب حاليًّا، يمتلك ليونة التعامل مع سخافة جيل أصغر أسقط المسافات باشتراك نت منزلي، ولديه طولة بال التعامل مع أبوية جيل أكبر

يمارس الأستاذية مجانًا محتميًا في بواقي ربابة قديمة.

جيل يستحق أولوية في التلقيح، لا خوفًا عليه، بل خوفًا على عنصر يكفل للتجربة الإنسانية قدرًا من الاتزان، عنصر معجزته الكبرى أنه لا يرى في نفسه أي معجزة.

قالت لي قريبتنا قارئة الفنجان: «رجل مهم وابنه في انتظارك». في اليوم التالي كان رامي إمام يتصل بي قائلًا إن والده يطلب مقابلتي، كنت في مكتبه قبل موعدي بدقائق قليلة فوجدته في انتظاري، ناقشني في كتاب ساخر أصدرته قبل عامين اسمه «شكلها باظت»، وتكلمنا عن تحويله إلى عرض مسرحي بالعنوان نفسه. كانت المقابلة مع زعيم كوميديا الوطن العربي لمعالجة كتاب ساخر لتحويله إلى مسرحية ضاحكة، على الرغم من ذلك كان الحوار جادًّا عميقًا استمعت خلاله بإنصات شديد لحلاوة تحليل الزعيم للمجتمع، وأين تكمن الكوميديا في تفاصيل حياته اليومية، لم تغب الابتسامة عن وجهه وهو يستعين بوجهات نظر قديمة ليوسف إدريس وأحمد بهاء الدين ومحمود السعدني في الموضوع نفسه. وخرجت أفكر لماذا لم تدهشني أجواء المقابلة، بعد يومين تذكرت أن الزعيم يستقر في قلبي بمحبتي لأعماله التي يمكن تسميتها جادة (دموع في عيون وقحة، المشبوه، الحريف، حب في الزنزانة)، لفتت المقابلة نظري إلى هذه المفارقة، الاسم الذي كان أقرب إلى أعمدة أساس الضحك في التاريخ الحديث، أنا شخصيًّا أحبه من منطقة أخرى، أرى أن براعته فيها كان لها الأولوية في تفسير المكانة.

قلت ربما هو ربط تعسفي لا يخلو من مبالغة، لكن ثلاث مكالمات تلفونية بيني وبين الزعيم أكدت ما فكرت فيه.

في الطريق إلى الإسكندرية لتقديم واجب العزاء في عمنا جلال عامر، فوجئت بالزعيم يتصل، كان يسألني عن عم جلال، قال لي: «أين كنتم تخبئون هذه الموهبة العظيمة؟ ولماذا لم تحتل من المساحات ما تستحقه؟». قلت له: «أنا في الطريق إلى الجنازة». قال: «جدع. بلَّغ أهله ومحبيه عزائي». سألني إن كنت أعرف حجم عبقرية الراحل، لم ينتظر إجابتي وقال بنبرة لا تخلو من حسرة: «خسارة. ما لحقناش نفرح بيه». كانت كلماته التي شرح بها سريعًا قيمة عم جلال تمتلئ بالشعور بالمسؤولية وتقدير المواهب مشمولة بحس ابن البلد الجواهرجي.

صدر لي كتاب اسمه «صنايعية مصر»، وظهرت في أحد البرامج فور نشره أتحدث عن محتواه، خرجت من الاستوديو وفور أن فتحت

الموبايل كان الزعيم، بعد السلام والتحية ناقشني حرفيًّا في كل ما قلته، الأسماء والتواريخ والقصص، لم يفته شيء تقريبًا، سألني عن مصادر المعلومات، الوقت الذي استغرقه إنجاز هذا المشروع، الأسماء التي تستحق أن يرد ذكرها في الجزء الثاني، قال لي وكنا بعد منتصف الليل لو أعرف مكتبة فاتحة كنت بعت جبته دلوقتي، قلت سيكون عندك نسخة صباحًا، قال فرحًا إنه في انتظارها ليضعها في مكانها إلى جوار كتب لأسماء كبيرة كنت أتصبب عرقًا من الخجل وأنا أسمعها.

انتهى تصوير فيلم «كابتن مصر»، كنت أنا كاتبه والبطولة لمحمد عادل إمام، لم تسمح لي ظروفي بحضور العرض الخاص، بعد انتهائه كانت مكالمة الزعيم، قال كلامًا أسعدني، ثم جاء وقت الوجه الجاد، قال: «لا داعي لأن ترتبط الكوميديا في فيلمكم بأسماء شخصيات عامة». كان السيناريو بما أنه يدور في ملعب كرة القدم يمتلئ بإفيهات تتعلق بأسماء بعينها في هذا العالم، قال لي الزعيم: «أولًا لا داعي للمشاكل وما تخلوش حد يزعل منكم»، وأضاف: «ثم إن الكوميديا القائمة على السخرية من أسماء معاصرة عمرها قصير»، ثم نصح بأنه إذا كانت هناك مساحة لتنقيح النسخة قبل العرض العام فيجب أن نفعل ذلك.

منحتني الظروف سعادة التعرف على وجه آخر للزعيم أحبه، وإن كان قليلون يعرفونه، ثلاث مكالمات ومقابلة مع ملك الكوميديا كانت تمتلئ بدروس مجانية ووجهات نظر تليق برجل جاد «شايل هم» الموضوع الذي يناقشك فيه، ممثل سكن في قلب كل من ينطق العربية بجملة ضاحكة، لكنه بالنسبة لي لم يفعلها إلا بجملة موحية قالها وهو ينزل إلى أرض الملعب: «أنا هالعب مع الخسران».

لا أحد ينام في هذه الليلة، يتمدد كل واحد قريبًا من حقيبة سفره التي يتركها مفتوحة حتى اللحظة الأخيرة، يقين ما لدى الجميع أننا سننسى شيئًا ما، فكرة لا مجال للتعامل معها بأي مقدار من التجاهل. تقضي الأم ساعات الليل الأخيرة تضع لمستها على لفات الساندويتشات التي سنستهلكها في الطريق، ساندويتشات الجبن الأبيض بالخيار والطماطم للنصف الأول من الطريق، ثم ساندويتشات الفراخ واللحم البارد للنصف الثاني، وتُرمس الشاي الذي قد ندفع جميعًا ثمن افتقاد أبي له على الطريق، علبة بلاستيكية لقِطع الفاكهة، وأخرى للخضراوات، تقدر الأم التموين اللازم لتغطية متطلبات أسرة من خمسة أفراد سيقطعون داخل سيارة مسافة تقترب من ثمانمائة كيلومتر.
السيارة مسؤولية الأب في هذه الليلة، يقضيها عند الميكانيكي يتمم على كل التفاصيل التي قد تفسد الرحلة، الزيت، الرادياتير، الكهرباء، الكاوتش، الاستبن، ماء المسَّاحات، سلامة مصابيح الإضاءة، ثم يبدأ في تمام الثانية عشرة تقفيل الحقائب ورصها بعناية في سيارة الطبقة المتوسطة الأشهر في مصر «فيات ١٢٨».
جولة صغيرة في الشقة تتمم فيها الأم على محابس المياه وأنابيب البوتاجاز، وإحكام غلق النوافذ مع لف سجاجيد الشقة في أشكال أسطوانية، وفرش الملاءات القديمة فوق كراسي الصالون، ثم رش البلاعات والأركان بمبيد النمل والحشرات... مهمة لا تقوم بها إلا بعد التأكد من نزولنا جميعًا، تليها وقفة أمام باب الشقة لدقائق تتمم خلالها الأم ذهنيًّا على كل ما قد نحتاج إليه خلال الأسبوعين المقبلين، دقائق يفقد فيها الأب صبره مبكرًا ويطلب من أي شخص فينا أن يذهب لاستعجال الأم التي تظهر في اللحظة التي نلقي فيها بمسؤولية تنفيذ أوامر الأب على بعضنا البعض.
«الفاتحة»، يطلبها الأب بصوت عالٍ مع التأكيد على «كل واحد في سره»، يضع شريط قرآن للشيخ عبد الباسط عبد الصمد تمت معالجة صوته فيه بتقنية صدى الصوت، «سورة يس» التي نعرف أننا سنستمع إليها كاملة مرتين على الأقل قبل أن يسمح لنا الأب بأن يمد أي واحد منا له يده بشريط من علبة شرائط كاسيت الطريق التي أُعدت بعناية،

يختار كل واحد في دوره ما يناسب ذوقه، كنت أنتظر دوري محملًا بـ«شبابيك منير»، لكن علبة الشرائط تتسع لكل الأذواق، علبة تستقر في حقيبة رياضية كتافات، مع واجب القراءة، كتب أنيس منصور ومصطفى محمود ورواية مخبأة بعناية لإحسان أو نجيب محفوظ، وأعداد منتقاة من مجلة «ماجد» و«ميكي» وسلسلة «المغامرون الخمسة».

لسنوات كانت هناك متعة تفوق جماليات الجلوس على البحر، وبناء بيوت من الرمل الثقيل، وتأمل الفطاطري وهو يجهز طلب العشاء، متعة تأمل كل هذه المدن، بداية من سوهاج حتى الإسكندرية، إثارة ما كانت مخبأة في إجابة الأم كل بضع ساعات عن سؤال «وصلنا فين؟». أسيوط... المنيا... بني سويف... القاهرة... شبرا الخيمة... بنها... طنطا... كفر الدوار... دمنهور... حمدًا لله على السلامة. بلاد يحاول الواحد أن يتخيل شوارعها وناسها، يصنع بينه وبين نفسه علامات تغنيه بالوقت وتكرار الرحلة عن انتظار إجابة الأم، عمارة قديمة، محل تصوير ذا اسم جذاب، مسجدًا على ضفة النيل، واجهة ملونة، غابة شجر تظل مسافة، شرفات واسعة، أكشاك جرائد أنيقة ومبهرة. كانت متعة الرحلة في الطريق، كبرت وقرأت لفلاسفة عالميين يقولون «الكنز في الطريق»، تلك الجملة التي صارت إكليشيهًا مبتذلًا اختبرت صدقها بنفسي طوال سنوات المراهقة. كان رفاق الرحلة يسخرون من قدرتي على البقاء مستيقظًا من الواحدة صباحًا حتى مساء اليوم التالي بينما أقضي معظم وقت المصيف نائمًا. كنت أهرب إلى النوم لأستدعي مشاهدات تتراكم في الخيال، أتخيل قصصًا تدور في هذه المدن، أتمنى لو أنني أستبدل مكاني مع أحدهم لأسبوع، ألعب ماتشات كرة قدم في شوارع المنيا، وأتعلق بفتاة تطل من شرفة في بنها، وأتجول فجرًا بالدراجة في طنطا، متعة سرية يصعب تفسيرها، على مدى سنوات المصيف كان البرنامج ثابتًا، ولكن كان الطريق يتغير وكذلك المراهق الذي يتأمله.

أنهيت كل المطلوب مني، وصَّلت الطفلتين إلى المدرسة، مررت بالسوق واشتريت ما ينقص البيت (فينو، شاي، لبن خالي الدسم، نعناع أخضر)، اقتسمت إفطارًا سريعًا مع الزوجة قبل أن تنصرف إلى مواعيدها، هاتفت أبي ألقيت عليه تحية الصباح، أمي بخير صبَّحت عليها بصورة التقطتها لطفلتي نائمة وقد ثنت ذراعها أسفل رأسها، نسخة من صورة لي في مثل عمرها.

أنهيت بالأمس كتابة معالجة لمسلسل عن مفتش بوليسي فاشل، أرسلتها صباحًا فور استيقاظي، غيرت ملابسي وشغلت الراديو، شادية تغني «فوت يا حبيبي وسلِّم»، ساعة المطبخ تشير إلى التاسعة إلا الربع، يسير الوقت بطيئًا في الأيام التي لا يحدث فيها شيء، كل ما أفكر فيه كيف يمكن للواحد أن يقضي وقتًا لطيفًا حتى موعد اصطحاب الطفلتين من المدرسة.

في انتظار الماء يغلي كنت أفكر في شغلانة الكاتب، كونها بلا مدير يوجِّه أو يدقق في المواعيد أو يخترع لك مهام، عمل يعتمد على شخص الكاتب فقط. أؤمن بقوة فريق العمل كطريقة للإنجاز، وكنت محظوظًا بشركاء نجاح منذ بدأت، لكن الفروق تستهلكك وتجعلك تطفح هذا النجاح بآثار جانبية مرهقة، فروق «الحماس، الطموح، الهمة، الرؤية، السرعة»، بغض النظر عن الشخص الذي تكون الفروق في صالحه. أفكر لو عاد بي الزمن لدرست التصوير والإخراج والموسيقى وهندسة الصوت وفنون الطباعة والنشر، ما ألطف أن تعمل وتنجز كخلية أميبا، تسحرني دائمًا قاعدة عمل «one man crew»، ربما هي الأنسب لقضاء تجربة الحياة عمومًا.

تذكرت تجارب العمل القصيرة التي خضتها بعيدًا عن الكتابة: مندوب مبيعات شركة ألعاب أطفال، قضيت شهرًا لم أبع خلاله قطعة واحدة، حال خجلي بيني وبين قدرتي على إقناع شخص لا أعرفه بأمر ما. ثم محاسبًا في بنك أجنبي تحت التمرين، أصحو في السادسة وأعود إلى البيت في الخامسة، انتظمت فيه لمدة سبعة أيام وفي اليوم الثامن أغلقت المنبه وعدت إلى النوم مرتاح الضمير.

لا توجد حياة تناسبني غير حياة الكاتب، ربما حياة الفلاح، لكنني لم أجربها، وإن كنت أؤمن أن في الزراعة المعجزة نفسها، الأصل كلمة، التعب مدَّخر، التدفق مطر، الأسلوب نظام، والثمار مُلهمة.

بينما أصب الشاي حاولت أن أتذكر أول كوب أعددته، فشلت، كانت هناك

أطياف لطفولة أغرب ما فيها هواية جمع علب أعواد الكبريت الخشبية، سحرتني علبة كانت في حوزة قريب لي قادمًا من بور سعيد، لا تشبه النوع المصري السائد وقتها، أخذتها منه ثم بدأت أراقب علب الكبريت في مطابخ الأقارب وفي حوزة أبي وأصدقائه المدخنين، توقفت عن هذه الهواية عندما صارحت بها صاحب «عربية الكبدة» القريبة من مدرستي الإعدادية، قال لي: «لا بد أن تتوقف، سيسألونك في اختبار كشف الهيئة في كلية الشرطة عن هواياتك، وإذا فتحت موضوع جمع علب الكبريت فسيرفضونك»، شعرت بالخوف، على الرغم من أنني لم أحلم يومًا أن أكون ضابط شرطة، لكنني فكرت في إهانة قد أتعرض لها وقد تكون محبطة لأهلي.

الخوف يفسر سلوك كل من حولك، يمكنك أن تغفر لكثيرين إذا فسرت سلوكهم برعب ما يعيشونه: خوف البخيل من قرصة الفقر والحاجة، خوف الدكتاتور من اكتشاف فضيحة هشاشته، خوف السخيف من إهانة يعرف أنها قد تقضي عليه، خوف الكاذب من العقاب.

أكره الخوف أكثر من المرض، الأخير خلل له تفسير وعلاج، الخوف وهم، تعلمت بالوقت أن أواجهه بلعبة صغيرة، سؤال «إيه أوحش حاجة ممكن تحصل؟»، أرتب خطتي كأنها وقعت، أسبق الخوف إلى أعلى ما في خيله وأنتظر هناك.

يقول شاعر فرنسي: «لا مكان ينام فيه الشخص بأمان مثل غرفة أبيه». لم يعد خيار الأمان هذا مطروحًا منذ بلغت العاشرة من عمري وأصبح واجبًا أن أعتمد على نفسي.

في العاشرة ذهبت بي أمي إلى طبيب الأنف والأذن، لاحظت الطريقة التي أردد بها بعض الأغنيات، تابعت ثم دققت ثم استجوبتني، أغني مع عبد الحليم «ما رمانا الهوى في العزبة»، بدلًا من «ما رمانا الهوى ونعسنا»، ومع سميرة سعيد «أهو سكب الصبر يا قلبي» بمعنى أن شخصًا ما سكب الصبر، بدلًا من «أوصيك بالصبر يا قلبي»، ومع فريد «معقول نلاقيك محبوب ومش معقول نلاقيك نايم» كدلالة على أن احتمالات وقوع الناس في غرام بطلة الغنوة واردة بقوة أكبر من احتمالات أن تسقط في النوم، بدلًا من «معقول نلاقي محبوب ومش معقول نلاقي اتنين»، ومع محمد ثروت «مصريين الديانة»، بدلًا من «مصر اللي مديانا»، كانت «مصريين الديانة» تملأني بحماس ملهم ضاع على الفاضي عندما عرفت الحقيقة كبيرًا. حاولت أمي أن تصحح فقاومت

وتمسكت بوجهة نظري، هي الآن أمام اختيارين، طفل مختل أو مشكلة في السمع، بعد زيارة الطبيب اكتشفت أن الأمر أكثر خطورة، طفل مختل عنده وجهة نظر.

رن جرس الباب، في الطريق إليه تعثرت بكيس به «شروة» كتب جديدة فشلت في معرفة سبب وجوده في هذه النقطة. تحمل رنة الجرس في العاشرة صباحًا اختيارًا من ثلاثة: فاتورة كهرباء، فاتورة الغاز، أوردر أون لاين. كان عامل النظافة، تسلم كيس القمامة مع إكرامية تلقاها بالجملة العجيبة التي تترجم معاني كثيرة متناقضة تتوقف على الطريقة التي تقال بها: «كل سنة وإنت طيب»، طيبة مبتسمة في عيد الميلاد، مبتسمة خجولة ساعة تلقي الإكرامية، مبتسمة سخيفة عند طلبها، مصحوبة بسحبة رأس إلى الأعلى بمعنى انسَ ضاعت الفرصة. لا بأس، هذا أفضل كثيرًا من جمل تعني عكس محتواها: أسهل طريقة لقطع كلام شخص مسترسل أن تبادره بـ«بدون قطع لكلامك». أفضل توطئة لوضع مفهومية وقيمة شخص ما في مرتبة أدنى أن تبادره بـ«مع احترامي لحضرتك». أفضل معالجة لضرورة استخدام مفردة ما لا تشبه مستوى الحوار أن تحيطها بـ«لا مؤاخذة في الكلمة». ولا أجمل وأكثر دفئًا وإنسانية من أن تلف هدية الإهانة لفة «أصل عيبي إن أنا صريح».

أفكر لو أن الواحد يعدل الصياغة إلى «معلش أصل عيبي إن أنا سخيف»، اعتراف يلمس القلب ويخفف «رزالة» الموقف، يحوله إلى ذكرى بها نسبة من السخافة صحيح لكنها ستُروى كإفيه.

أحاول أن أتذكر اللحظات التي كنت فيها سخيفًا. تذكرت واحدة ساعة تركيب ستائر شقة الزوجية في لمسات أخيرة قبل الزفاف، انزعجت زوجتي لأنني اشتريت قماشًا غير الذي اختارته، قلت لها: «وحش، ما عجبنيش ذوقك»، امتقع وجه زوجتي وفقد نصف وزنه في لحظة، لم تكن الإهانة، لكن رعب النظر إلى شخص ستُكمل معه حياتها، هذا المدب الواقف أمامها هو مستقبلها، رأيتها تبتلع ريقها بصعوبة وتنصرف، حاولت كثيرًا أن أعتذر، كان النجاح محدودًا، ثم عثرت على تخريجة، قلت لها: «بصراحة ذوقك وحش، أنا ذوقي أحلى بكتير، شوفي ذوقك في الراجل اللي اخترتيه وذوقي في الست اللي اخترتها».

قال الأكابر قديمًا ما أجمل أن يعبر الواحد الحياة خفيفًا ويقف أمام الله خفيفًا، لذلك يبدو الزواج في عيون كثيرين «توريطة»، فقد تم سجن شخص

في شخص آخر، الطريف أن كليهما سجين، الشريك الناجح ليس كما هو شائع الشخص الذي يعين شريكه على الدنيا ومشاكلها فقط، ولكن هو الشخص الذي يعين من معه على الزواج أصلًا.

احترام آدمية الشريك وكرامته وثقته في نفسه وشعوره بالأمان، الدعم المجاني والتماس الأعذار وافتراض حسن النوايا، التشجيع والتفهم، مرونة الاعتذار وسلاسة قبول الاعتذار، التعامل مع مشاعر الشريك باعتبارها عهدة تحتاج إلى حماية وصيانة، ابتلاع الهفوات والتغافل عن كلمات أو أفعال غير موفقة. الإهانة داخل مؤسسة الزواج، إهانة لـ«سجين» لا يمكنه تجاوز أرض الموقعة، يمر كل نصف ساعة بالمكان الذي تأذت فيه كرامته، غصة للذكرى الخالدة.

في اتجاه المكتبة كنت أراجع محتويات «الشروة» الجديدة، رصصتها وشعرت أن المكتبة بحاجة إلى بعض الترتيب، خطوة إلى الخلف جعلتني أرفع مقاسات كيان بدأ يتكون قبل ثلاثين عامًا، أفكر ما الذي سحرني في القراءة؟

وقعت في غرام القراءة عندما اكتشفت فيها لعبة اسمها «ماذا تفعل لو كنت مكاني؟».

ماذا تفعل لو كنت مكاني أمام هذا الجمال؟ الخوف، الحيرة، الوحدة، الفراق، القلق، الخطر، الوجد، اللوعة، الاختيارات الإنسانية المحيرة، الحب الذي يكاد يعصف بجدران حياتك، الرغبة في الانتقام التي تطيِّر النوم، مشقات الصعود، إحباطات الهزيمة، أسئلة الوجود، صمت الراحلين، رائحة من تحبهم، علامات الطريق الغامضة، وعلامات الأحداث القديمة في الروح، وعلامات الاستفهام التي تكبر حتى تكاد تلتهم كل ما يقابلها؟

لعبة تفسدها الإجابات الجاهزة، ويشعلها كاتب لا يحتفظ بالكرة كثيرًا.

التمريرات الذكية تجعل التجربة تضج بالمتعة والإثارة.

بمرور السنوات كانت القراءة تفصح لي عن المزيد من ألعابها.

فرص الحياة المؤجلة تتحقق، البلاد التي لم تزرها، والثروة التي لم تجنها، والأشخاص الذين حلمت بهم ولم تلتقهم، كل ما سبق وأكثر يحضر بين يديك وقوامه الحبر والورق والخيال.

أن تعيش ألف حياة وتحب ألف مرة، وتنجو دائمًا دون إصابة واحدة.

هدايا المطابع، وموسيقى الإضاءة الخافتة، وشغف الصفحة المقبلة.

مرآة المصعد التي تخبرك عن نفسك ما لم تكن تعرفه.

مخبأ يدلك على طريق، وطريق يدلك على مخبأ.

مغامرة الوقت التي لا تعرف الخسارة، لن تندم على وقت ضاع بين صفحات كتاب ما، الكتاب الجيد يقول لك تعلمت، والرديء يقول لك نجوت.

ثم استقرت القراءة في الوجدان كطريقة للتعامل مع الحياة، قراءة الكتب أقلها متعة، السحر كله في قراءة الناس.

رن الموبايل، قال صديقي افتح التلفزيون، على الشاشة كانت إعادة لحلقة من برنامج يظهر فيها كاتب زميل، أحبه لكن لا أستطعم ما يقدمه، كان صديقي المتصل يعرف رأيي فقرر أن يحرق دمي بمتابعة الزميل والمذيعة تتغزل في موهبته التي تذكرها بأسماء عندما نطقتها أصابتني شرقة إسكندراني.

لا علاقة للأمر بالنفسنة، يمتعض الإنسان من نجاح من لا يستحق ـ من وجهة نظر ذوقه الشخصي ـ امتعاضه من احتساب هدف يؤمن أنه أوفسايد.

نجاح الآخرين بالنسبة لي مدرسة ومستشفى ومعبد.

في المدرسة يتعلم الواحد كيف فعلها من نجح، كيف تعامل مع الأمر، الطريقة التي قدم بها ما عنده، وما الذي جعل البعض يقعون في غرامه.

مستشفى بتأمُّل نجاحات الغير يجد فيها العلاج لتعثره، الطريقة التي يمكن أن يداوي بها الجزء الذي لا يعمل بكفاءة أو بطاقة كاملة في الإدراك، المجهود، العلاقات العامة.

ومعبد قد يصفو فيه الواحد بتقصي الحكمة في منح النجاح لمن ـ يعتقد أنه ـ لا يستحق، رسائل تهذب غرورك وتقول لك مش بالشطارة، وأنه يدي الحلق للي بلا ودان، لتفهم أن الموضوع مش في الودان لكنه في نقطة أبعد تحتاج للتأمل والأدب.

غيرت المحطة فوجدت هاني شاكر يغني، لم أخطط يومًا للاهتمام بما يقدمه، حتى قال لي الشاب بائع العصير في أحد محلات ساحة المرجة بسوريا عندما عرف أنني مصري: «إحنا بنحسدكم على هاني شاكر»، منحت شاكر بعض الاهتمام لأفسر لمعة عينَي الشاب وهو يقدم هذا الاعتراف، بالوقت تسللت أغنياته القديمة إلى بلاي ليست حياتي، حتى إن تطبيق ساوند كلود عندما أرسل لي قائمة الأغاني التي أفرطت في الاستماع إليها خلال ٢٠٢١ وضع في مرتبة متقدمة «أصاحب مين» و«حلو الحب»، جمل قصيرة عابرة تخبئ خلفها تغييرًا تتراوح أهميته بين التافه والدرامي.

كنت أطرق باب خطيبتي وكلي شكوك في أن الزواج قد يضيف لي شيئًا، ارتحت إلى السنجلة وكنت أطرق الباب وأنا أقرب لفكرة العودة إليها، فتحت خطيبتي الباب فشممت رائحة أسرتني، قالت لي باسمة: «عاملين كيكة»، هنا انهارت كل شكوكي، كانت عزوبيتي هشة سحقتها تفصيلة أسرية فضحت الصحراء التي كنت أحسبها جنتي.

غيرت المحطة، روتانا سينما تبدأ عرض فيلم «المشبوه»، سألتني ابنتي في مرة عن «أكتر فيلم بتحبه في حياتك»، تذكرت «المشبوه»، قالت: «احكِ لي قصته»، قلت لها السطر الذي قد يثير خيالها: «عصابة سرقت طفل من باباه ومامته وبيحاولوا يرجعوه»، اختزال مخل سيتحول إلى فضيحة قريبًا.

تفاجئني طفلتي بالأسئلة، لكنها تقدم لي في إجاباتها عن أسئلتي ما أعجز عن تخيله، قلت لها: «أحبك»، قالت: «وأنا كمان»، ظننت أنني سأكون ظريفًا بسؤال: «من إمتى؟»، لكنها سددت القاضية وكانت صادقة: «من أول يوم»، طفلة في السادسة قررت أن ترجع في الزمن لتضع يدها على اللحظة التي أحبت فيها هذا الرجل، فاكتشفت أنها كانت في أول يوم تعي فيه أي شيء، أسألها عن الحيوان الذي تتمنى أن تكونه فتقول: «كوكا»، اسم شقيقتها.

أغار من تعلقها بأمها، أحسد زوجتي على أمرين: الأمومة، ولحظات تطبيق الغسيل. انتصار صغير له رائحة حلوة وملمس ناعم وخيال يحتضن سكان البيت قطعة قطعة، إنجاز طيب يكسو المحبة شعورًا بالثقة، يفرغ الطاقة السلبية وينظم الأفكار، أحب أن أراها تقوم بالمهمة وهي تدندن، أتذكر مقولة أحدهم: «لا ثورة بدون أغنيات»، أتسلم قطعي النظيفة التي تلهم الواحد بداية جديدة فيتأكد يقيني أن الرجال يحركون الكوكب والنساء يشرن إلى الأمام.

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة عندما شعرت بالجوع، تقرصك المعدة في لحظتين المشترك بينهما أن كلتيهما قد تقودك إلى فعل أحمق، لحظة الجوع ولحظة الخوف. قررت أن أوضب طبق جبنة قريش، وضعت قطعة في طبق واسع، رششت الكزبرة الناشفة والكمون وقليلًا من حبة البركة، قطَّعت ثمرة طماطم مع رشة شطة، عجنت الخليط بزيت الزيتون و«قمرت» رغيفًا حتى شاطت حروفه.

لا أشهى من طعام الجائع أيًّا كانت طبيعة «اللقمة»، أكره اللحظات التي أكتشف فيها أن الوجبة التي أكلتها لم تكن ابنة الجوع ولكن ابنة «الطفاسة».

إلى جواري فريد الأطرش في راديو المطبخ يقدم وصفته للسعادة، أدقق

فيها للمرة الأولى وأفكر لماذا خبأها في آخر كوبليه من الغنوة:

هني أحبابك

ود أصحابك

وارضى بمنابك

دي الحياة حلوة

الرضا صعب ويحتاج إلى التمرين، ولا شيء يفسده مثل السوشيال ميديا، يتزين الجميع بلحظات وأخبار وصور المرح والسعادة والنجاح حتى تظن أنها ملخص حياة الجميع فتندب حظك لاإراديًّا، استُدرجت البشرية لهذا الفخ وتورطت فيه بعد أن أصبح باب رزق وشهرة، قبل عدة سنوات كان يُنصح بالمداراة على الشمعة، إلى أن ظهر مارك زوكربيرج يومًا مؤسسًا لنظرية الشمعة دي تحطها في... عينك... آه.

استدعت الوجبة بعض الخمول، ظهرت الحاجة إلى فنجان القهوة المحوج، أشربه مضبوطًا، قررت هذه المرة أن أجربه على الريحة حسب وصفة بائعة العطور. كانت بطلة القصة التي جرت بينما ألتقط أنفاسي على مقهى في التوفيقية، قصة بدأت برجل وامرأة يقتربان من المكان. كانت تسبقه بخطوة. خمنتُ أنه تركها تفعل ليمنحها حرية اختيار المنضدة التي ترضيها.

على كنبة صغيرة في مدخل المقهى جلسا متجاورين. كان واضحًا أن كلًّا منهما يحافظ على مسافة لا تورطهما في القرب، ولا تنفيه. طلبا اتنين شاي. كان الرجل أسمر أنيقًا نحيلًا، يفيض ثقة دون أن يخل ذلك بتواضعه ورقته، وكانت صديقته خمرية ذات حضور فاتن، بملامح أقرب إلى الطفولة، وأصابع نحيلة تجفف بها كل قليل عرقًا للخجل نصيب في ضخه أكبر من نصيب الطقس. يتحدث إليها طوال الوقت وهو ينظر إلى الأمام دون أن تغيب الابتسامة عن وجهه، وكلما انشغلت عنه لثانية بالنظر إلى حقيبتها أو الموبايل أو تقليب السكر، يسرق نظرة إلى وجهها، كانت عيناه تقولان الكثير.

اقتربت منهما فتاة محجبة مبتسمة، بحذاء رياضي وبنطلون جينز، كانت تحمل حقيبة منتفخة، توقفت أمامهما تستأذنهما في دقيقة لعرض ما تبيعه، رحبت المرأة الجالسة بها وطلبت منها أن تجلس لتستريح. قالت: «لو قعدت مش هاعرف أقوم تاني».

أخرجت البائعة من حقيبتها زجاجات عطور قصيرة، كان واضحًا أنها من النوع المصنَّع منزليًّا، رجت الزجاجة ثم رشت القليل على يد الخمرية ودعتها

للتدقيق، أعجبتها الرائحة، قربت معصمها من صديقها، اتسعت ابتسامته وقال: «هناخدها».

«أربعون جنيهًا»، قالت البائعة، فأخرج الرجل ورقة بخمسين. فتشت البائعة عن الباقي، وجدت ورقة بعشرين أعطتها للرجل: «يبقالي عشرة».

«وهي الإزازة فيها كام عشرة؟ يبقالي أنا».

طلب الرجل منها أن تستكمل جولتها ربما تعثر على الفكة فتعيد له الباقي في طريق عودتها، ثم قرأ فيما قاله ما قد يجرح كرامتها، فقال: «إحنا قاعدين. منتظرين ناس». قبلت البائعة العرض وانصرفت.

أخرج الرجل الزجاجة ورش منها مرة أخرى على يد صديقته فابتسمت، فتحت حقيبتها ومدت يدها لتأخذها، قبل أن يضع الزجاجة في يدها رش القليل منها على معصمه.

طلبا الحساب وانصرفا. قبل أن أنصرف لمحت البائعة تقترب مسرعة، كانت تبحث عن الرجل وصديقته وفي يدها ورقة العشرة جنيهات، قال رجل المقهى: «مشيوا». فكرت لثوانٍ قبل أن تسحب مقعدًا لتجلس، فكت رباط حذائها دون أن تخلعه، ثم قالت للجرسون: «قهوة ع الريحة في كوباية».

وصلتني رسالة، كانت شركة الإنتاج تخبرني أن معالجة المفتش البوليسي التي عرضتها لا تناسبهم، اعتذروا عن عدم استكمال التعاون، ينقذني من الإحباط في هذه اللحظات أريحية شعور «اللي تعب وعمل اللي عليه»، أحاول ألا أدخر جهدًا ليرتاح ضميري كرب أسرة، أسعى هنا وهناك، وأجلس في انتظار المفاجآت، حيث يتدفق الرزق ـ طول الوقت ـ سهلًا عبر الأبواب التي لم أطرقها، الرهان على ما تقدمه لتصبح مستحقًّا لهذه الهدايا، قاعدة الخواجة الشهيرة: «مش كل مرة تجري بالكرة هتجيب جون، لكن عمرك ما هتجيب جون من غير ما تجري بالكرة».

يمتلئ الكون بالمعجزات، لكن الرزق من العجائب، العجائب معجزات تحمل رسائل ما. قال لي السايس على سبيل النميمة يصف أحد زبائنه ميسوري الحال: «ربنا مديله في إيديه الاتنين». أعجبتني البلاغة، العامية المصرية مرنة وتسمح بتراكيب تقول إن المؤسس كان شاعرًا. سمعت مرَّة واحدة تهدد بالانتقام من شخص بـ«أدعي عليه دعوة توقع اللقمة من بُقه»، مصاب عظيم أحد أعراضه مشهد مهين، كيف أمكنها تلخيص الموضوع؟ سمعت في مرة تفسيرًا لنجاح أحد المعارف المفاجئ: «ربنا شاور عليه». «إيده طارشة»

تلخص غشومية كائن لا تثنيه صيحات الألم عن الاستمرار في أذية شخص ما يستغيث لأنه لا يسمعها. لا قاعدة لترتيب الأولويات في قوة «لو نسيت الفاتحة تصلي بإيه؟». فسر صديق «كرشه» بـ«طبلية أبويا». وهونت خالتي على شخص نحوله الشديد وتردي صحته بـ«إن عاش العود اللحم يعود». لخص بائع بخور مسن حملة رجال المرافق على فرشته أمام مسجد سيدنا الحسين: «الإنسان بيكتف أخوه الإنسان». ووقف أحدهم على فرشة أحذية بماركات عالمية مقلدة في سوق العتبة يهتف: «الشوز الماركة... سكته سالكة».

رن الهاتف، كان رقمًا غريبًا، لا أفهم لماذا تؤرقني الفكرة، منذ وعيت على الدنيا وحتى نهاية التسعينيات أرد على تلفون لا يقدم أي بيانات من أي نوع، لم يحدث أن أثارت رنة هاتف المنزل ارتيابي من قبل، ولا أذكر أنني قد شعرت بتوتر مماثل، أقول لنفسي ربما توتر المعلومة الناقصة، يقدم لك الموبايل رقمًا مجهولًا، معلومة لا تستطيع أن تستفيد منها، مسؤولية على الفاضي. حتى بعد ظهور خاصية التروكولر صارت تتوقف نجاتك من التوتر على ضربة حظ، لأنك قد تسقط في متاهة أكبر عندما يخبرك الأبليكيشن أن الرقم الغريب مسجل باسم أكثر غرابة «الطوخي ويليام».

تمر بي أرقام غريبة طول الوقت، لكنني حوصرت على مدى أسبوع بأرقام يسأل أصحابها عن «حمدي روسيا»، يسألون عنه بثقة، ويبدأون الكلام من نقطة توقفوا عندها قبل نصف ساعة، كانت نوعية المتصلين واحدة تقريبًا، خشنة غامضة ذات لكنة شعبية، إلى أن قررت أن أسأل أحدهم: «مين حمدي روسيا؟»، ارتبك قليلًا وبعد إلحاح قال لي: «مخلصاتي عنده تروسيكل في الكابلات»، وفهمت أن رقمي هو رقمه الجديد، حاولت أن أستوضح منه الـ«job description» الخاصة بمهنة «مخلصاتي» فأغلق الهاتف.

اتصلت بشركة المحمول، قلت لمندوب خدمة العملاء: «أنا ومجرم نشترك في خط تلفون واحد، هل يجب أن أشعر بالقلق؟»، انقلبت الدنيا، كانت الواقعة واسم شريكي سببًا لانفجار الضحك في كل مرة أحكي القصة لمسؤول، كان الضحك يبدأ من عندي للأمانة، إلى أن اتصل بي أحدهم آخر النهار قال: «غلطة موظف نادرة الحدوث، لن يتصل بك أحدهم ثانية يسألك عن روسيا»، وتلقيت هدية حلوة على سبيل الاعتذار.

عدت إلى المطبخ وخرجت بخمسينة شاي جديدة. على ماسبيرو زمان

برنامج أطفال ثمانينياتي بمذيعة تحكي قصة السندريلّا. أفكر في قصة من عمر البشرية تقريبًا يرويها الجميع بنغمة واحدة، من وجهة نظر لا تتغير، لماذا لم يفكر أحدهم مثلًا أن يروي القصة من وجهة نظر نائب الملك؟ رجل محترم يجوب شوارع المدينة يحمل فردة حذاء «تحت باطه»، ينحني أمام كل فتاة عشرينية تقابله طالبًا منها أن «اديني رِجلك»، دخل معظم بيوت المملكة (مغامرة لم يخضها الملك نفسه)، هنا بيت مرعب وآخر مرح دافئ، بيت يحتفل وآخر يغرق في مأساة، بيت به واحدة تأسره ولا تطلق سراحه قبل أن يجيب عن ثلاثة أسئلة، وآخر به واحدة تتوسل إليه أن ينقذها، واحدة أغوته وثانية وقع في غرامها وثالثة قالت له إنت رجل تافه إنت وملكك.

وقت يمر وملك على أعصابه يتوعد النائب إذا تأخر بنفيه إلى جبل الطاطورة، فلاش باك في ذهن النائب لأغرب المهام التي أُرسل فيها، كيف أهلكته نزوات الملك وقصص حبه البائسة التي جعلته يقع في غرام السندريلا، تضيع منه فردة الحذاء فيخوض مغامرة مع رجلين أحدهما أصم والآخر لديه ساق أطول من الأخرى يواجهون خلالها كائنًا نصفه الأسفل كنغر والعلوي كلب بلدي، حتى يستعيدوا الفردة.

مغامرات لا تنتهي في حيز زمني ضيق، بطلها مغرور، خُلقه ضيق ومُهزأ، تغيره الرحلة تمامًا ويرجع منها وقد انكسر غروره واتسع صدره وسكن الغرام قلبه واتجه إلى تجارة الأحذية الحريمي.

ربما أبدأ في كتابة هذه القصة إذا عثرت على نهاية حلوة.

قضيت وقتًا طويلًا يشغلني سؤال «أبتدي من فين؟»، حيرة الأسئلة الوجودية تتجسد هنا كاملة، يمكن للواحد أن يبدأ من أي نقطة، اكتشفت أن السؤال الذي يجب أن يشغلني «هاقفل فين؟»، أين يمكنني أن أستقر بالأفكار التي تشتت تنفسي وإبصاري؟ صرت أؤمن أن الكتابة لها كلمة سر واحدة «أن تبدأ»، انطلق لكن لا بد أن تكون انطلاقتك مشروطة، لن يمنحك تطبيق الـ«gps» مسارًا ما لم تحدد له نقطة الوصول، كذلك الكتابة، إذا قررت أن تنطلق من ميدان التحرير بلا وجهة فستضيع، لكن إذا قررت أنك تريد الوصول إلى الإسكندرية فلن تستهلكك إلا الطرق التي تؤدي لها، ربما في نقطة ما تكتشف أن مرسى مطروح أفضل، لكنك عرفت أنها أفضل لأنك قارنتها بالإسكندرية.

إدارة الوقت وتفادي التشتت يخدمان الكتابة، يحتاج الواحد إليهما في مهنة

يجب أن يتفرغ خلالها لكتابة الظل لا الثمار.

قطع الأفكار رنين الهاتف.

كانت زوجتي تذكرني بموعد انصراف الطفلتين، تعرف أنني قد أحلِّق في سماء الليفينج إلى ما لا نهاية، سألتها عن منيو الغداء، قالت: «تونة»، قلت: «لا بأس، لكن هل من الممكن أن تعملي لنا كيكة؟»، أجابت بـ: «عينيا»، ثم أملت عليَّ المقادير. مررت بالسوبر ماركت لشرائها، كنت أتنقل بين الرفوف بينما فكرة غريبة تطاردني، كيف عثر النائب على السندريلا وفردة الحذاء لم تكن على مقاسها أصلًا بدليل أنها انخلعت منها وهي تجري؟

الأفكار الواردة هنا تعبِّر عن قناعات الكاتب حتى تاريخ ٨ ديسمبر ٢٠٢٢، وهو يخطط لتحسين جودتها في أقرب فرصة.